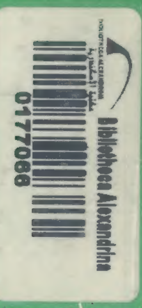
أعلام العرب

٥٧

ابن النفيس

بقلم

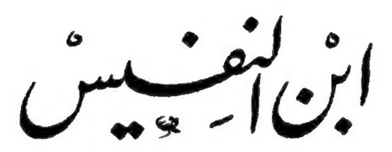
دكتور بول غليونجي



الدار المصرية للتأليف والترجمة

أعلام العرب

٥٧



ابن النفيس

تأليف

دكتور بول غليونجي

الدار المصرية للتأليف والترجمة

توزيع

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة - القاهرة

تليفون : ٩٠٨٩٢٠ — ٩٠٥١٤٧

المقدمة

لكل ضرب من ضروب المعرفة ثلاثة أركان وثلاثة أوجه : فلسفة ، وفن ، وابتكار . والطب : فلسفة وتأمل ، ونَطَس وممارسة ، وعلم واستكشاف . ولئن امتاز ابن سينا والرازى وابن النفيس فى كل ضلع من أضلع هذا المثلث ، فان ابن سينا كان فى هذا الثالوث فيلسوفا عميقا ، والرازى نطاسيا ماهرا واكلينيكيا فذا ، وابن النفيس علميا مجددا بكشــفه عن سر غامض من أسرار الجسم ، وكان بين العرب خاتمة هؤلاء الذين أزاحوا الستار عن بعض الوظائف الفسيولوجية بانيا استنتاجاته على أسس راسخة من الملاحظة الدقيقة والمنطق السليم .

على أننا لم ننس ذكراه بعد مروره على هذا الأديم ، أديم مصر الذى ازدهرت عليه العبقرية والأصالة منذ أول تاريخها . فلقدذكره العلماء ، ونوّه به المؤرخون، وأشاد بذكرهالمعاصرون، وأفرد له « لكلير » صحيفتين فى ثنايا مؤلفه عن « تاريخ الطب العربى » . الا أن نجمه مع ذلك ظل فى المرتبة الثالثة من مراتب الكواكب ردحا طويلا حتى أزاح التطاوى عنه الستار . وعندئذ برق سناه بسنى لو قيست به موجة العبقرية لسما الى مرتبة أسطع الاجرام السماوية ضوءا .

ومع ذلك كله فان ما نعرفه عنه لا يزيد على معلومات ربما

تنطبق على أى طبيب آخر ممن عملوا وكدّوا واشتهروا ، فنحن نجهل مسقط رأسه على التحقيق ، كما نجهل تاريخ ميلاده ، ونسبه لأمه وأبيه ، وان الشك ليكاد يحوم حتى حول حقيقة اسمه .

فهو حقيقة وسراب فى وقت معاً .

هو حقيقة بشهادة معاصريه وتلاميذه ، وبما ورثناه من مصنفاته .

وهو سراب يتبدد لدى أى محاولة للدنو منه . وما السراب الا الواقع المنعكس على مرآة هاربة من الهواء ، وما المرآة سوى ذاكرة المعاصرين التى تتفاوت فى درجة الدقة وأمانة النقل .

ولقد كتب عنه الكثيرون بعد التطاوى . ولكن لم تتح لمواطنه هذا فرصة متابعة الكشف عنه وذلك لكثرة تنقلاته بين أقسام وزارة الصحة التى لم ترحمه حتى سقط شهيد الواجب الانسانى ، وبعدئذ آل الفضل فى الكشف عنه الى مايرهوف الذى أمسى مرجع الباحثين والمؤلفين . وكان مايرهوف أمينا فى نسبة الفضل الى التطاوى وذكر اسمه فى كل كتاباته . الا أن آخرين حاولوا اغتصاب الفضل الأول فى الكشف عنه .

صحح « ڤييت » الأوضاع وكثر الكلام وكثرت الأبحاث . وتضاربت الأقوال فى هل نقل أوروبيو عصر النهضة فكرة الدورة

الدموية عنه ، أم أنهم وصلوا اليها غير مسترشدين به . ولقد كاد علماء الغرب أن ينكروا أى تسلل لأفكاره اليهم .

غير أن الوقت قد حان لدراسة تفصيلية تضع ابن النفيس فى اطاره ، وتبوح بما نعرفه عنه يقينا ، وبما تتخيله ، وبما ننكره على من افترى عليه . وقد ذيلنا هذا البحث بنسخة أمينة من الترجمة التى ترجمها له العمرى ، وارتكزنا على نصوص جديدة غير معروفة عموما . نأمل ألا تحملنا نزعتنا فى القومية الى أبعد من الحقيقة المعقولة ، وأن يكون صوتنا صدى أمينا لحقيقة شخصه وتاريخه .

وأرى من واجبى أن أزجى جميل شكرى الى الذين تفضلوا بمعاونتى فى هذا البحث ، وأخص بالذكر الأستاذ الدكتور أرتلت مدير معهد سنكنبرج لتاريخ الطب بجامعة فرانكفورت أم ماين بألمانيا ، والسيد الدكتور سامى حمارنة كبير أمناء قسم العلوم بالمعهد السمشونى بواشنجطون ، وصديقى الأستاذ الأديب مجد الدين حفنى ناصف .

الباب الأول

تاريخ الطب قبل ابن النفيس

الطب قبل العرب :

نشأ الطب مع الألم — والألم قدّر للانســـان من مهده «لقد خلقنا الانسان فى كبد» — وتفنن البشر فى العلاج منذ أول التأوهات التى تأوه بها أسلافه فى الغابة الأزلية ، وقد قال مازح يداعب التاريخ ان أول من مارس الطب هو سيدنا آدم عليه السلام عندما عاون سيدتنا حواء وهى تضع أول طفل لهما ، « لأكثر أوجاعك وحبلك وفى الوجع تلدين » [1] .

ولكل شعب طبه الخاص ، ولكل طب لونه الخاص الذى تغير وتموّه مصطبغا بميول هذا الشعب المنحدرة فى اتجاهات عملية أو كهنوتية أو سحرية ، حسب فلسفته ونظرته للكون .

أما فى الشرق الأوسط فقد خطا هذا الضرب من المعرفة أوسع خطواته فى ظل الحضارتين العظيمتين اللتين ازدهرتا فى حوض النيل والفرات . ولا علم لنا بمدى استقلال كل منهما عن الأخرى ولا مقدار ما تقابساه ، وتلك اقتباسات واستعارات قد نكشف عن الكثير منها فى المستقبل الا اننا نزداد يقينا ، يوما

---

(١) سفر التكوين : ٣ ، ١٦

بعد يوم ، بأن الخَلفية التى كانت تصور العالم العتيق على أنه مجموعة من الصور المنفصلة وتوحى بأن حضارته نبتت فى حقول مستقلة تفصل بينها صحارى لا سبيل الى اجتيازها ، تقول اننا نزداد يقينا بأن هــذه الخَلفية تجانب الواقع وتتعارض مع ما تراكم من أدلة على اتصالات دائبة كانت تربط بين البلاد منذ أقدم العصــور . وما دمنا قد أخذنا بفكرة الأصل الواحد للبشر ، فان الظروف التى سمحت بتشتيتهم يمكن أن تسمح باعادة تجمعهم .

واذن فان كان لطب هاتين الحضارتين أثر فيمن جاورهما فلا معدى عن البحث عن أثر هؤلاء الأغراب فيهما ، ونخص بالذكر الهند التى استمد منها الطب العــربى بعض عناصره الهامة .

ومهما يكن من أمر تبادل المعارف الطبية بين وادى النيل ووادى الفرات فان طب كل منهما نحا نحواً مختلفا يصور طبيعة كل من الشعبين ، فنشــأ الطب المصرى على نزعة تجــريبية اختبارية ، لا يكون السحر فىأقوى فتراته الا جزءا ضئيلا منه ، أما الطب البابلى فقد بنى على السحر والعبــادة مع قَبَس هين من العقاقير .

نشأ الطب على أسس واقعية أول مرة فى مصر ، وترعرع فيها ووصل الى ذروته على ما يبدو فى خلال عهــد المملكة الوسطى وأول عهد المملكة الحــديثة ، وذاعت شهرة الأطباء المصريين وسعى أباطرة آســيا الى الفراعنة بغية ايفــاد أشهر

أطبائهم الى بلاطهم ، ثم دخلت فيه عناصر مبيدة من الطب السحرى والكهنوتى أوقفت نموه وان بقيت تقاليد كانت الجذور التى أنبتت طب الأسكندرية ، وظلت هذه التقاليد حية حتى عهد جالينوس فى القرن الثانى الميلادى اذ كان العلماء ما يزالون يترددون على مكتبة منف ليطلعوا على المؤلفات المحفوظة بها ، فقد زار مصر أجلّ أطباء اليونان وفلاسفتها شأناً ، أمثال فيثاغورس وأبقراط وأفلاطون ، وقرأ هؤلاء على أقطابها واقتبسوا منهم الكثير وصقلوه فى القالب الفلسفى الذى تمتاز به نزعتهم التعقلية ، وصاغوه فى الصيغ النظرية التى كانت عقولهم تميل اليها .

والنظريات — اذا أخذت بمعناها الصحيح ، أى على أنها مجرد تجميع للمعلومات المتناثرة المحصلة فى فترة بقصد تسهيل استذكارها ، ووضع فروض تيسر فهمها وتستوجب اختبارات جديدة لسوق الدليل على سلامتها أو على خطئها — نقول ان النظريات تكون حينئذ ضرورة من ضروريات البحث وركنا من أركان تقدم العلم . وعندنا أن تقاصر قدامى المصريين عن اقامة نظريات عامة غير النظريات الروحانية ، ينطلقون منها بقفزات متجددة ، هذا التقاصر كان عاملا أساسياً فى توقف تقدمهم بعد أن لمعوا فى عهد المملكة القديمة وأول المملكة الحديثة ، كما أن الشباك النظرية التى انشغل اليونان بنسجها وانصرفوا بها عن البحث الأصيل ، هذه الشباك حولت جهودهم من الابتكار الى

النقاش الجدلى الذى برعوا فيه والذى انتهى الى تعثر حركتهم الذهنية .

الا أنه ، بفضل ما امتاز به الاغريق من المنطق والبراعة الجدلية ، وبفضل فصلهم العلم عن الدين ، سرعان ما آلت الأولية فى الطب اليهم . ونظرا الى ما بين الطب العربى والطب الاغريقى من أواصر متينة ، ونظرا الى أن الطب العربى استمد من الطب الاغريقى أول ايحائه ، فاننا سنفرد فصلا لهذا الأخير ، ونبحث فى كيفية تسلله الى العرب :

الطب الاغريقى

لم ينظر الطب الى الصحة والمرض والعلاج عامة بوصفها موضوعات تخضع دراستها للبحث التجريبى والتفكير المنطقى ، الا عندما حاول الاغريق ، أول مرة فى التاريخ ، تفسير الكون والاستدلال على قوانينه ، بالتفكير المجرد والمنطق المقنن ، بل بالتوصل الى أساليب المنطق لتكون أداة لهذا التفسير . وانما نهجوا هذا المنهج لايمانهم بقابلية الكون للتفسير العقلى ، وبسببية الأحداث الطبيعية . فنظروا الى تأملات الفلاسفة والى ملاحظة الظواهر الطبيعية على أنها موضوع لدراسة واحدة متكاملة ، ولذا فان ما نسميه اليوم بالعلوم الطبيعيه ان هو الا آخر مرحلة من مراحل تطور طويل تناول أجرأ الاستقراءات الكونية التى كان أساسها العقيدة بأن المادة تخضع لقوانين طبيعية جامدة يمكن استنباطها من مميزات ذرات

المادة الهندسية والميكانيكية ، فبينما كان القدامى عامة يكتفون في دراساتهم بالبحث عن قواعد تطبيقية في الحياة ، كان الاغريق يسبرون غور الكون ويحاولون أن ينفذوا الى أسراره .

وهناك ظاهرة أخرى اتسم بها هذا الشعب الاغريقي الخليق بالاعجاب ، وهي أن التعليم الذي كان في بداية عهده سرياً ، شأنه في ذلك شأنه في سائر الحضارات التي عاصرته ... سرعان ما حطم قيوده ، وتخطى الحدود التي كانت موضوعة له ... واذا بالطائفة تتحول الى (مدرسة) ... واذا بالـ (مطلعـين) أو (المريدين) يتحولون الى طلبة ، وبفلاسفة أثينا يتجادلون أو (يتفلسفون) في كل المناسبات كالحفلات والولائم .. حتى أننا نرى أفلاطون يطلق اسم (المأدبة) على أهم انتاج له ... وأن فئة من الفلاسفة سميت بالمشائين **Peripateticians** نسبة للطريق **Peripato** الذي كان يحيط البارثنون في قلب أثينا ، والذي كانوا يتمشون فيه وهم مسترسلون في جدلهم .

الا أن هذه النزعة التعقلية المجردة لم تكن وليدة أثينـا نفسها ، وانما جاءت ثمرة جهود فلاسفة مستعمرات الاغريق في جزر النصف الشرقي من البحر الأبيض المتوسط وشواطئه . واذا كنـا سنشير الى هؤلاء الفلاسفة والى فلسفاتهم فلأن نظرياتهم أثرت ليس في الجزء النظري البحت من الطب فحسب ، وانما أثرت كذلك في جميع نواحيه وبخاصة فيما يتناول العلاج ... ذلك لأن الفلسفة كانت ــ كما قلنا ــ جزءا لا يتجزأ من العلم التجريبي الذي لم تحدث أية محاولة لفصلها عنه .

وقد تخيل هكسلى النشاط الذهنى الذى ساد العالم فى ذلك الوقت على أنه من فعل خميرة عقلية عمَّت فاعليتهـا فى المنطقة الواقعة بين بحر أيجة وشمال الهندستان ... وقد أيَّد جوناثان رايت هـذا الزعم قائلا ان زرادشـت فى ايران ، وكونفوشيوس فى الصين ، وبوذا فى الهند ، وطاليس فى أيونيا ، وفيثاغورس فى صقلية ، قد نشطوا جميعاً فى وقت واحد على وجه التقريب ، وفى مناطق تقع على خط واحد هو خط العرض ٣٥ شمالا وهو الذى يمر بآسـيا الصغرى وجنوب ايطاليـا وصـقلية .

المدارس الفلسفية :

وأولى مدارس الفلسـفة هى مدرسة طاليس فى ملطيـة (سنة ٦٣٦ ــ ٥٤٤ ق. م.) ، وطاليس هو الرياضى الذى تمكن من قياس ارتفاع الهرم بتطبيق قانون المثلثات المتشـابهة على قياسين هما قياس ظل الهرم وقياس ظل عصاه . وآراء طاليس العلمية لا تهمنا بقدر ما تعنينا الطريقة التعقلية التى توصل بها الى هذه الآراء .

وقد كان المفكرون ــ فى ذلك الوقت ــ يبحثون عن علة هذا الكون ، محاولين تفسير جوهره بعنصر أوَّلى واحد تكونت منه الكائنات ، ولعل أعمق مفكرى هذه الحقبـة التى غرست أثناءها بذور ذهن الانسان الحالى ، هما فيثاغورس وأنبادقليس، لما تركاه من الطابع الدائم فى الفكر البشرى ، ولأثرهما فى الطب

العربى ، وقد نسجت حولهما الأقاصيص ووضعهما مؤرخو العرب فى مصاف أكبر الحكماء ، بل كادوا يرفعونهما الى مصاف الأنبياء ، فاننا نجد ابن أبى أصيبعة يقول : « قال القاضى الصاعد ان بندفليس كان فى زمن داود النبى عليه السلام على ما ذكره العلماء بتواريخ الأمم وكان أخذ الحكمة من لقمان الحكيم بالشام .. وان فيثاغورس أخذ الحكمة عن سليمان ابن داود عليهما السلام وكان قد أخذ الهندسة قبلهما من المصريين . وله فى نضد العالم وترتيبه على خواص العدد ومراتبه رموز عجيبة وأغراض بعيدة » ، وبصدد زيارته لمصر قال : « واشتاق فيثاغورس الى الاجتماع بالكهنة الذين بمصر فابتهل الى فولوقراطيس أن يكون له على ذلك معينا فكتب الى أماسيس ملك مصر كتابا يخبره بما تاق اليه فيثاغورس ويعلمه أنه صديق من أصدقائه ويسأله أن يجود عليه بالذى طلب وأن يتحسن عليه . فأحسن أماسيس قبوله وكتب الى رؤساء الكهنة بما أراد فورد على أهل مدينة الشمس وهى معروفة بزماننا بعين شمس بكتب ملكهم فقبلوه قبولا كريماً وأخذوا فى امتحانه زمانا فلم يجدوا عليه نقصاً ولا تقصيراً فوجهوا به الى كهنة منف لكى يبالغوا فى امتحانه فقبلوه قبولا على كراهية ، واستقصوا امتحانه فلم يجدوا عليه معيباً ولا أصابوا له عثرة فبعثوا به الى أهل ديوسبولس ليمتحنوه فلم يجدوا عليه طريقة ولا الى ادحاضه سبيلا لعناية ملكهم ففرضوا عليه فرائض صعبة مخالفة لفرائض اليونانيين كيما يمتنع عن قبولها فيدحضوه

ويحرموه طلبه ، فقبل ذلك وقام به فاشتد اعجابهم منه وفشا عصر ورعه حتى بلغ ذكره أماسيس فأعطاه سلطاناً على الضحايا للرب تعالى وعلى سائر قرابينهم ولم يعط ذلك لغريب قط .. ».

وفيثاغورس صاحب نظرية مربع وتر الزاوية القائمة ، كان أيونى الأصل ، عاش فى كروتون بجنوب ايطاليا (من ٥٨٠ الى ٥٠٠ ق. م) . وقد تخيل الكون خاضعاً لقوانين الأرقام . وكان تلاميذه يقدسون بعضها مثل رقم أربعة الذى كانوا يسمونه (الرقم الكامل) لخواصه العجيبة .. ومع أن مدرسة فيثاغورس انحلت بعد موته لأسباب سياسية ، فانها ظلت بعد ذلك قرنين على شكل طائفة فلسفية ودينية سرِّيَّة ، وأثرت على الفكر الفلسفى بعدها ، الى حد أننا نجد أبقراط نفسه يحدد أياما حاسمة بالنسبة للأمراض لمقابلتها بعض الأرقام التى لها خواص معينة .

ولعل تفكير فيثاغورس المبنى على خواص الأرقام والنسب العددية وعلم الألحان هو أساس نظريات أنبادقليس وتلاميذه . فبينما كان أمثال طاليس وأيراقليطوس وأناكسمين يعتقدون أن أصل هذا الكون جوهر واحد ، هو فى النظريات المختلفة : الأرض أو الهواء أو النار أو الماء ، كانت نواة تعليم أنبادقليس Empedocles فى صقلية أن الكون مبنى من أركان أربعة ، كل ركن لا يمكن تقسيمه ، وأن جميع الأجسام نشأت من امتزاج أو تجمع تلك العناصر الأولى بأشكال مختلفة ، وبنسب متفاوتة ، وأن هذا الامتزاج أو التجمع يخضع لقانون الجاذبية

والنفور . وهاتان النظريتان ، نظرية العناصر الأولى التى لا يمكن تقسيمها ، ونظرية التجاذب أو النفور ، نجـد فيها أصـول الكيمياء الحديثة ، كما نجد أن تحديد الأركان بأربعة يعتمد على قداسة هذا الرقم عند الفيثاغوريين ، وهو أساس تقسيم الأخلاط الى أربعة أيضا ، ذلك التقسيم الذى ساد الفكر الطبى حتى العهد الحديث .

وقد روى عن أنبادقليس أيضاً أنه كافح الحميات التى كانت منتشرة فى سلننتم بتجفيف المستنقعات المحيطة بها ، وقضى على الأوبئة فى أجريجنتم مسقط رأسه بتبخير عام .

وفى الزمن نفسـه عاش فى مدينـة كروتون القمـايون Alcmaeon الذى سمى بأبى الطب قبـل الأبقراطى ، وكان مذهبه أن الصحة ان هى الا حالة التناسق أو الانسجام التام بين عناصر الجسم المختلفة ، وأن المرض يحدث بطغيان عنصر على العناصر الأخرى وأن الشفاء هو الانتقال مرة أخرى من حالة الاضطراب الى حالة الانسجام . (وهذه النظرية هى التى تبناها بعد ذلك أبقراط واعتمد عليها فى وضع نظرية الأخلاط).

وقد فطن القمايون الى تأثير المناخ والتغـذية والبيئة فى الأمزجة ، والى صلتها بالأمراض ، وقد أشار تلاميذه فى كتاباتهم الى الأخلاط الأربعة ، وشبـّه بعضـهم الجسم السليم بالقيثار ذى الأوتار المشدودة بدرجة واحدة ، فاذا ارتخى أحد هذه الأوتار أو اشتد ، زال الانسجام وماتت الروح قبـل موت الجسـد .

ولقد عمد القمايون الى تشريح الحيوانات ، ووفق الى اكتشاف عصب البصر وقنوات استاخيو واستطاع أن يميز بين الأوردة والشرايين ، وفسر النــوم والموت بأنهما نتيجتــان لانحســار الدم من المــخ ، وقال بأن المخ هو مركز الذهن والحواس ، الذى ينشأ عنه التفكير والتمييز .. ولقد تبعه فى هذه الآراء أفلاطون وأبقراط بينما خالفه أرسطو وزينو زعيم الرواقيين (Stoics) اللذان نسبا هذه الخواص الى القلب لا الى المخ . ولذا فاذا كان الفضـــل يرجع الى فيثاغورس فى وضع أسس نظريات أبقراط ، لا سيما فيما يخص عدد الأخلاط وأرقام الأيام البحرانيــة ونظرية الانسجام الخ . فان فضـــل القمايون أكبر اذ أنه نبه من جهة الى ضرورة الالتجــاء الى التجربة العملية للتحقق من صحة الافتراضات التكهنية ، ومن جهة أخرى الى وجوب اقتران البحث الطبى بالتفكير الفلسفى .

وأهم المؤلفات التى خلفها القمايون هو كتاب (فى طبيعة الانسان) (On Nature) الذى ظل مدة طويلة المرجع الأساسى للطب قبل الأبقراطى وأثر تأثيراً عميقاً فى طب أبقراط نفسه ، ويمكن اعتباره النواة التى انتجت طب مدرسة قوس . الا أن كل ما وصلنا منه لا يتعدى نبذا ضئيلة وردت فى كتابات المعقبين عليه أمثال أفلاطون فى « فيدون » . ومع ذلك فان دى رينزى Di Rienzi يذهب الى أن بعض أجزاء المجمــوعة الأبقراطية قد اقتبست اقتباساً من كتابات القمايون ، كما أنه يعد كتـــاب الطب القديم (Ancient medicine) وكتـــاب المرض المقدس

(On the sacred disease) اللذين ينسبان عادة الى أبقراط من انتاج أطباء مدرسة كروتون ... ويوافقـه فى ذلك عـدد من المؤرخين المعاصرين الذين ينسبون الى هذه المدرسة أهميـة تزداد يوما بعد يوم .

ومن أشهر الأطباء الذين عرفوا قبل أبقـراط انكساغورس Anaxagoras الذى عاش فى أثينا ، وهو أيضا أيونى الأصل . وقد اشتهر فيها ـــ وهو ما يزال شاباً ـــ بآرائه الثورية التى أثرت أعمق التأثير فى الفكر الانسانى وفى نظرة الانسان الى الكون ، فهو الذى قال ان الشمس ما هى الا حجـر منصهر وهاج ... وان عدد العناصر الأولية فى الكون لا يحصى ، لأنها من الصغر والدقة بحيث لا تؤثر فى الحس الا اذا تجمع عدد كبير منها ... وان عملية الخلق لم تكن سوى تجميع عنـاصر كثيرة كانت موجودة ولكنها غير مرئية ، شأنها شأن تلك التى توجد فى الغذاء قبل أن تدخل فى تكوين الجسم بتجمعها فيه ـــ وزعم (انكساغورس) أن الخالق ما هو الا مبدأ موجه سماه النوس (Nous) أو العقل ، وهو يقابل نظرية الجاذبية والتنافر فى آراء أنبادقليس .

وقد حظى (انكساغورس) فى أثينا بمنزلة عظيمة ، وتمتع فيها بنفوذ كبير ، وكان طبيباً ناجحاً بالرغم من فلسفته الهدامة ، فقد روى بلوتارك أنه تولى علاج بريكليس نفسه علاجاً نفسياً كان له الفضل فى استقرار ذهنه ، وفى تعلمه كيف يطبق قضايا

المنطق على الطبيعة ، وفى تحرره من الخزعبلات العقيمة المروعة ، وفى اعتناقه دينا كله سماحة وسلم وأمل .

***

لكن جميع هؤلاء الأطباء والفلاسفة الذين سبقوا أبقراط والفلاسفة والذين مهدوا لسقراط ، لم يعدوا الانسان الا حدثا عارضا لقوانين الكون ، ولم يحلوه محله الحقيقى من الطبيعة ، قريبا من الأرض متأثرا بقوانينها ، مستجيبا لمقتضياتها ، قادرا على أن يهيىء لنفسه عليها حياة سليمة سعيدة ، ومتحررا بفضل قواه الحيوية من قوانين الكون المجـردة المبنية على التفكير المطلق .

ولقد وفق عباقرة عهد أبقراط وسـقراط فيما فشل فيه سلفهم ، ونحن حين نصل الآن الى هذا العهد انما ندخل فى عهد أثينا الذى يمكن أن يطلق عليه بحق (عهد الانسانية الذهبى) .

أبقراط ومدرسة قوّ

نظرية الاخلاط والفيسيس ــ القوى الشافية ــ قنيدوس

ابقراط ومدرسة قو :

ان نظرة النقد الحديث الى أبقراط ومؤلفاته ، قد تغيرت تغيراً محسوساً منذ أن بدأ العلماء يطبقون قواعد نقد النصوص ، التى أوضحت أن المعلومات التاريخية الموثوق بها عن شخصية أبقراط تكاد تكون معدومة ، وأن هذا الطبيب الفريد لم يؤلف الا قلة مما نسب اليه . وترجع أول ترجمة لحياته الى سوارنوس الطبيب الذى عاش فى القرن الثانى بعد الميلاد . وقد ولد أبقراط ــ تبعا له ــ سنة ٤٦٠ ق.م. فى جزيرة قوّ ، وكان ينتمى الى أسرة طبية عريقة ، أسرة الأسقلبياذ التى تكونت من ذرية أسقلابيوس ، وهو الطبيب الذى ورد ذكره فى منظومات هوميروس ، وأُلّه بعد ذلك وقيل انه ابن أبولو . ودرس أبقراط العلوم الطبية فى معبد أسقلبيوس بقوّ ، ثم زار مصر وجميع مدن اليونان وبلادا غيرها . ولم تمنعه الأسفار من ممارسة مهنة الطب فى مسقط رأسه .

وقد عرف أبقراط كل فلاسفة عصره ، ونشأت علائق الصداقة بينه وبين الكثيرين منهم ، أمثال « ديمقريط » صاحب النظرية الذرية ، و «جرجياس» أبى البلاغة ، و «هروديكوس»

أخصائى الجباز ، ومع أن اسمه لم يذكر فى كتابات معاصريه أمثال أفلاطون الا مرات معدودة ، فقد ذاع صـــيته فى حياته وكاتبه ملوك الأرض وعبثـا حاولوا اسـتدراجه الى بلادهم بالذهب ، وأُلّه بعد مماته ، ونسجت القصص حول اسمه ، وأصبح اسم بقراط على لسان العامة مرادفا لقمة العلم والحكمة، حتى انه يحكى الى الآن أن النحل الذى يعيش حول قبره يفرز عسلا شــافيا للأمراض . ومما رواه المؤرخون المعقبون عليه ليدلوا على فضله ؛ قال سليمان بن حسان : ان افليمون صاحب الفراسة كان يزعم أنه يستدل بتركيب الانسان على أخلاق نفسه فأراد بعض تلاميذ أبقراط امتحان افليمون هذا فصوروا صورة أبقــراط ثم نهضوا بها الى افليمــون ليحكم بها على أخلاقه ، فنظر اليها وقال : رجل يحب الزنا ، فقالوا كذبت ، هذه صورة أبقراط الحكيم ، فقال لهم : لا بد لعلمى أن يصدق فاسألوه ، فرجعوا الى أبقــراط وأخبروه بالخبر وبما قال لهم افليمون ، فقال أبقراط صدق افليمون أحب الزنا ولكنى أملك نفسى . وقد نسبت هذه الرواية أيضا الى سقراط وتلامذته .

وروى حنين بن اســحق فى كتاب « نوادر الفلاســفة والحكماء » أنه كان منقوشا على فص خاتم أبقراط : « المريض الذى يشتهى أرجى عندى من الصحيح الذى لا يشتهى شيئا ».

وقد توفى أبقراط بعد حياته الحافلة فى لاريسا من أعمال تساليا سنة ٣٧٧ ق. م وروى ابن أبى أصيبعة أنه مات بالفالج وأوصى أن يدفن معه درج من عاج لا يعلم ما فيه ، فلما اجتاز

قيصر الملك بقبره رآه قبرا دليلا فامر بتجديده لأنه كان من عادة الملوك أن يفتقدوا أحوال الحكماء فى حياتهم وبعد وفاتهم فلما حضره لينظر اليه استخرج الدرج فوجد فيه الخمس والعشرين قضية فى الموت التى لا يعلم العلة فيها لأنه حكم فيها بالموت الى أوقات معينة وأيام معلومة ، ويقال ان جالينوس فسرها وهذا مما استبعده والا فلو كان ذلك حقا ووجد تفسير جالينوس لنقل الى العربى ، كما قد فعل ذلك بغيره من كتب أبقراط التى فسرها جالينوس ، فانها نقلت بأسرها الى العربية .

أما جزيرة قوس التى نشأت فيها أشهر مدرسة طب فى العالم القديم ، والتى أنجبت سلسلة من العلماء على رأسهم أبقراط ، فانها جزيرة صغيرة ، مساحتها مائة ميل مربع ، تقع فى بحر أيجية بالقرب من الركن الجنوبى لآسيا الصغرى . وقد عمر هذه الجزيرة شعب دورى نزح اليها من أبدوروس فى البلوبونيز حيث كان يعبد أسقلبيوس ، وقد شيد هذا الشعب وسط المياه المعدنية التى تزخر بها ضواحى عاصمتها معبدا لهذا الاله أصبح مرادا للمرضى . والى اليوم يشار الى شجرة دلب ، تبلغ دائرتها ثلاثين مترا ، وتتكىء غصونها الكهلة على أعمدة من الخشب فى قلب سوق المدينة ، ويقال ان أبقراط كان يأوى الى ظلها لعيادة مرضاه ، وقد كشفت حفائر سنة ١٩٠٠/١٩٠٥ فى ضواحى العاصمة عن معابد وأروقة ومداخل معمدة ، يرجع أقدمها الى القرن السادس وأحدثها الى القرن الثانى قبل الميلاد وقد هدمها زلزال سنة ٥٥٤ ميلادية .

ولقد ورثنا مجموعة مؤلفات تسمى بالمجمـوعة الأبقراطية Corpus hippocraticum وترجع أقدم نسخة موجودة منها الى اليوم الى القرن التاسع الميلادى وهى باللاتينية ، وتوجد من تلك الأصول نسخ فى فينا وباريس وفلورنسا والفاتيكان والبندقية وليس من بينها واحدة كاملة .

وبخصوص تاريخ تلك المجموعة فقد ظهرت بعض أجزائها فى أول الأمر فى مدينة الاسكندرية عندما نشأت بها مدرستها الشهيرة وهذا فى أول القرن الثالث ق.م. أى ما يزيد عن قرن ونصف بعد وفاة أبقراط . وكانت وزعت قبل ذلك نسخ كثيرة فى بلاد اليونان ولم يتم جمعها نهائيا الا فى القرن الثالث ق.م. عندما أمر حاكم الاسكندرية الاغريقى المصرى بضمها الى مكتبة المدرسة وسميت بعد ذلك بالمجموعة الأبقــراطية ، وعلى مر الزمن دست عليها مؤلفات عدة مختلفة القيمة ، لما كان يحيط باسم أبقراط من الاجلال فى هذا الوقت (كما تسند اليوم كل النكات الى جحا أو أبى النواس) ، واستمرت عملية الاضافة حتى بعد الميلاد بقرنين فى روما ، ولم يفت الأطباء الأقدمين هذا العبث ، واعترض كثير منهم على تبعية بعض أجزاء منها ، وألف جالينوس كتابا فى كتب أبقراط الصحيحة وغير الصحيحة ، وقال عن كتاب الأمراض الوافدة (انى وغيرى من المفسرين نعلم أن المقالة الرابعة والخامسة والسابعة مدسوسة ، ليست من كلام أبقراط) ، وقد وافق أحدث النقاد على هذا وبنوا رأيهم

على اعتبارات لغوية وموضوعية وعلى تضارب بعض الآراء التى جاءت فى مختلف الأجزاء .

نظرية الأخلاط والفيسيس :

أما أساس مذهب مدرسة قوْ فهو مبنى على نظرية الأخلاط وقد شيدت هذه النظرية على تأملات فلسفية مبنية على فكرة الفيسيس (Physis) وهذه الكلمة التى ترجمت بـ (طبيعة الانسان) ، واشتقت منها كلمة فسيولوجيا ، ويرد ذكرها كثيرا فى أبقراط وجالينوس وغيرهما ، تمثل ركنا أساسيا فى نظرتهم الحيوية الى علم الحيـــاة ، وهذا الركن هو اعتبار الجسم كلا متماسكا ، والاعتقاد بأن الجسم يعمل كوحـــدة ، وأن نشاط أجزائه المختلفة يخضع لتناسق عال لهذه الوحدة ، وأنه كلما كملت الوحدة فى العمل كلما قرب الجسم من الكمال ، وعلى العكس من ذلك فان استقلال جزء فى نشاطه يؤدى الى الفوضى والمرض .

وليس من شك فى أن فكرة الفيسيس هذه ، التى أثبتتها البحوث الحديثة فى كيفية احتفاظ الجسم بتركيبه الداخلى ، وفى استجابة المحور المكون من الجهاز العصبى والغدد الصم الى مختلف التأثيرات الخارجية ، هى فكرة فلسفية مجردة لا يمكن تحليلها ، وأن هذه الوحدة ، بشكلها التصوفى ، كانت ـــ فى نظرة هؤلاء الفلاسفة ـــ سر الحياة .

أما عن علاقة الجسم ، بصفته وحـــدة ، بما يحيطه ، فان أبقراط وجالينوس بعده كانا ينظران الى الحياة كتجاوب أو

انسجام بين (الفسيس) والمحيط الذى يعيش فيه ، بل انهما كانا يعدان الجسم وبيئته وحدة متكاملة لها قطبان : أحدهما الجسم والآخر البيئة ، وخاصتان ، احداهما خضوع الجسم للمحيط ، والأخرى استيعابه له بأن يأخذ منه ما ينفعه ويلفظ ما لا يلائمه ، فان نجحت عملية الاستيعاب أو — كما سموها الهضم (Pepsis) تمت الصحة ، والا تتج المرض ، واذن يصبح المرض حالة فردية لهذه العملية .

وترتبط الطريقة التى تجرى بها الفسيس هذه العمليات ارتباطا وثيقا بنظرية الأخلاط ... تلك النظرية التى عرفت كما قلنا من قبل أبقراط بزمن طويل ، وتأثرت أولا بالنظريات الفيثاغورية فى الأعداد وقداسة رقم أربعة ، وثانيا بنظريات أنبادقليس الذى حدد الأركان بأربعة : قال انها الماء والهواء والأرض والنار .

وبالمثل فان أخلاط الجسم حدد عددها بنفس هذا الرقم وهى : الدم والبلغم والصفراء والسوداء [1] ، ولها صفات أربع هى السخونة والبرودة واليبس والرطوبة . ثم ان المذهبين الذين أتوا بعد ذلك ربطوا بين كل ركن ، وكل خلط ، وكل عضو ، وكل صفة ، وبين كل مزاج من الأمزجة ، فقالوا مثلا : ان الدم من القلب ويسيطر على المخ وصفته السخونة ، والبلغم من المخ وسلطانه الرئة وصفته البرودة ، والصفراء من الكبد

---

(1) قال ابن سينا فى « ارجوزة فى الطب » ٧٢ :

الجسم مخلوق من الأمشاج ... مختلفات اللون والمزاج

من بلغم ومرّة صفراء ... ومن دم ومرّة سوداء

وسلطانها المرارة وصـــفتها الجفاف ، والســوداء من الطحال وسلطانها المعـــدة وصـــفتها الرطوبة . وان الدم يسيطر على الدمويين ، والصفراء على الصفراويين والسوداء على السوداويين وهكذا . ثم جاء النفثيون Pneumatists ووصفوا أمزجة مختلفة تجمع بين أكثر من خلط وصفة ، كأن يجتمع فيهــا الرطوبة والسخونة . أو السخونة والجفاف ، أو البرودة والرطوبة ، أو البرودة والجفاف .

وقد ذاع تقسيم الطبائع الى أربع حتى بين غير المتطببين الى درجة أننا نجد الشعراء يتناولونه فى مزاحهم ، وأبو نواس مثلا يقول :

ســألت أخى أبا عيسى وجــبريل له عقــلُ
فقلت الراح تعجــبنى فقــال كثيرها قتــلُ
فقــلت له فقــدر لى فقال وقــوله فصــلُ
وجــدت طبائع الانســـــان أربعــة هى الأصلُ
فأربعــة لأربعـــة لكل طبيعــة رطــلُ

وما جبريل أبو عيسى الذى يســتشهد به أبو نواس الا جبرائيل بن بختيشوع من مشاهير أطباء أوائل العهد الاسلامى . ومن الطريف أن هذه الأبيات تزدان بها جدران فندق من فنادق القاهرة الوجيهة وهذا ولا شك لحث رواده على الوصول الى هذا القدر من الأرطال .

ولقد ظل هذا المذهب أساسا للطب حتى القرن الثامن عشر الميلادى ، عندما استكشفت الجراثيم ، ونشأ علما البكتريولوجيه

والأمراض المعدية اللذان يقولان بأن كل مرض انما يحدث نتيجة لعدوى خاصة ، وها نحن اليوم نجد أن الطب يذهب مذهبا يشبه شبها كبيرا نظرية الأخلاط فاننا لا نرجع مثلا مشكلة الدرن الى مجرد الجرثومة ، وانما نعترف بأهمية استجابة الأنسجة اليها .

كان المرض اذاً — فى نظرة هؤلاء الاغريق — ينبع من الجسم نفسه ، وانما اعتقد الأبقراطيون أنه يحدث أيضا من عدم التوازن الناجم عن سيطرة أحد العناصر الأربعة فى البيئة الخارجية . ونتيجة سيطرة أحد هذه العناصر الخارجية على الجسم هى أن تجعل الخلط المقابل له يتغلب على الأخلاط الأخرى فيهيئه للمرض . وهذه العناصر تشمل الهواء والماء والطعام وما يقابلها من رطوبة ويبس وحرارة .

القوى الشافية الطبيعية : (Vis medicatrix naturae)

ولكن الجسم له استعداد طبيعى للشفاء الذى يتأتى له حين يستجيب كل تغير يحدث فى البيئة ، بفضل عملية الهضم (pepsis) التى هى نوع من نضج الأخلاط يتم بتأثير الحرارة الداخلية وينتهى بالتخلص من المواد الزائدة أو الفضلات وبالتالى باستعادة التوازن .. وبذلك قسمت الأطوار التى يمر بها المرض الى ثلاثة ، هى الطور النىء أو الخام كما سماه أبقراط ، فطور النضج ، ثم طور البحران Crisis الذى يتأتى فى أثنائه التخلص من الخلط الزائد .

وأضاف جالينوس فيما بعد الى نظرية أبقراط أن كل خلط له منفذ خاص يتخلص الجسم منه عن طريقه . فالدم مخارجه

الأنف أو الفم أو الحيض ، والبلغم مخرجه مخاط الأنف ، والصفراء مخرجها الكيس الصفراوى ، والسوداء مخرجها الطحال والمعدة . وعملية التخلص هذه تحدث ـ حسب زعم أبقراط ـ بالنسبة للأمراض الحادة فى أيام معينة هى الأيام البحرانية (Critical) ، وتتم بوساطة القيء أو الاسهال أو التبول أو النزيف أو تكون الخراج . أما فى الحالات المزمنة فالانتهاء أقل تحديدا ، ويحدث لا بالبحران ولكن بالتحلل (lysis) فكان أبقراط ينظر الى المرض على أنه ظاهرة طبيعية فى الجسم ، لا تختلف عن عمليات الصحة الا بشدتها فحسب ، فانها تشابه عمليات النضج والتخلص من الفضلات التى تحدث طبيعيا ، مثلا بعد كل أكلة .

أما العامل الثانى فى نشأة الأمراض ، فكان فى اعتبار أبقراط المناخ . وكان يعيره أهمية قصوى ، فكان الاعتقاد أن كل حالة طبيعية أو مرضية تتفق ومناخ خاص ، وأن الأمراض الموسمية تختلف تبعا لاختلاف طبيعة المواسم أو تبعا للطابع العام الذى يتميز به هذا الموسم أو ذاك ، فسمى أبقراط سنة من السنين مثلا السنة الطاعونية ، وأطلق على أخرى السنة الدرنية .. الخ . ولقد أحيا نظرته الواسعة الى المرض فى القرن السادس عشر سيدنهام الذى سمى بأبقراط الانجليزى . ثم ظهرت منذ زمن قريب المدرسة الأبقراطية الجديدة (Neo - hippocratic) التى أعادت الى الطب بعض الأفكار الأبقراطية .

والعامل الثالث فى نشأة المرض ـ بعد كل من المزاج

الموروث والبيئة ــ هو نتيجة أفعال الانسان وعاداته حميدة كانت أم سيئة ، ويمكن تسمية هذا العامل بالعامل (الوظيفى) .

واذا نظرنا الى وسائل العلاج التى أوصى بها أبقراط نجد أنه أدرك ــ كما يدرك جميع الأطباء الجديرين بهذا الاسم .ــ أن الجسم يستطيع أن يحل مشاكله بنفسه ، حتى اذا تحتم عليه تحمل المرض أثناء هذه العمليــة . يترتب على ذلك أن أنجع وسيلة للعلاج هى ترك الجسم يستمد صحته تلقائيا ... وهــذا المبدأ نجد مثله فى لفافة أدوين سميث حين نقرأ هذه العبارة . (دعه مربوطا فى مرساه ...) . ومن هنا يجــدر ــ ان تعذر الشفاء ــ تغيير الظروف التى حدث فيها المرض ، وذلك بأن ينقل المريض الى بيئة صالحة ، وأن يقدم اليه طعام صحى .. ولقــد قال أفلاطون فى هذا المعنى فى مؤلفه المسمى طيماوس هناك علاج واحد لجميع الأمراض ، وهو تزويد المريض بغذاء مناسب ووظائف ملائمة .

وكذلك لقد فسرت التربية فى هذا العصر أنها امداد الشخص ببيئة معينة ، وسميت هذه التهيئة باا Diaita أو الـ Regime ومعناها « نظام الحياة » وهما أساسا العلاج الأبقراطى ، ونظام الحياة هذا كان يعتمد الى حــد كبير على الرياضة التى كانت تختلف باختلاف أساليب الأســاتذة ، وأشهرهم هيروديكوس الذى كان نظامه يشمل الغذاء ونشر الخشب والمشى التدريجى والقراءة بصوت مرتفع والغناء ... الخ .

ثم ان هناك حالات تستوجب التأثير لا فى البيئة والوظيفة

فحسب ، وانما فى الجسم نفسه بمساعدته مباشرة ، لا سيما فى عملية التخلص من الفضلات ومن الأخلاط الزائدة ، فيعطى مثلا ما يدر الصفراء اذا زاد هذا الخلط ، ويفصد اذا زاد الدم وهكذا ، واذا كان مبدأ العلاج الطبيعى مأخوذا من الطب المصرى فاننا نجد أن تجريد الطب العلاجى من العقاقير المركبة والوصفات الغريبة التى يزخر بها الطب الفرعونى يختلف اختلافا كبيرا عما هو المعهود فى طلب الفراعنة .

وقد قال ليتريه ان مؤلفات أبقراط تبلغ الاثنين والسبعين . وقد عدّ العرب منها ثلاثين أصيلا ، والتى أوصوا بدراسته لمن يقرأ صناعة الطب اثنى عشر كتابا ، هى كتاب الأجنة الذى يتضمن القول فى كون المنى وكون الجنين وكون الأعضاء ، وكتب طبيعة الانسان ، والأهوية والمياه والبلدان ، والفصول ، وتقدمة المعرفة ، والأمراض الحادة ، وأوجاع النساء ، والأمراض الوافدة ، والغذاء ، وقاطيطريون أى حانوت الطبيب وفيه ما يحتاج اليه من أعمال الطب التى تختص بأعمال اليدين دون غيرهما ، وكتاب الكسر والجبر .

أما ما قد يكفى لتخليد اسم أبقراط بين الحكماء الملهمين ، فهو كتاب الوصية ، والقسم الذى فرضه على من كان يبغى مزاولة صناعة الطب ، وقد روى أنه فرض هذا العهد عندما شعر بأن الصناعة قد تخرج عن أهل أسقليبوس الى غيرهم فوضعه ليستحلف فيه المتعلم لها على أن يكون لازما للطهارة

والفضيلة ، ثم وضع الوصية لتعريف ما يجب أن يتصف به الطبيب . وقد يكون هذا الكتاب مقتبسا من أصل مصرى ، فقال :

« الطبيب يجب أن يكون فى جنسه حرا وفى طبعه جيدا ، حديث السن ، معتدل القامة متناسب الأعضاء ، جيد الفهم ، حسن الحديث ، صحيح الرأى ، عفيفـا ، شجاعا ، غير محب للفضة ، مالكا نفسه عند الغضب ، مشاركا للعليل ، مشفقا عليه ، حافظا للأسرار ، محتمـلا للشتيمة ، لأن قوما من المبرسمين وأصحاب الوسـواس السوداوى يقابلوننا بذلك وينبغى أن نحتملهم عليه ، ولا يستقصى قص أظافير يديه ولا يتركها تعلو على أطراف أصـابعـه ويجب أن تكون ثيابه بيضاء نقية ، ولا يكون فى مشيه مستعجلا لأن ذلك دليل على الطيش ولا متباطئا لأنه يدل على فتـور النفس ، واذا دعى الى المريض فليقعـد متربعا ويختبر منه حاله بسكون وتأن لا بقلق واضطراب » .

وهناك فقرة من القسم أثارت جـدلا حول طابع القسم اللاهوتى وهل كان الغرض منه الاحتفاظ بالطب على أنه مذهب سرى مقصور على بعض المريدين ، وها هى الفقرة : « وأشرك أولاد المعلم لى ، والتلاميذ الذين كتب عليهم الشرط وأحلفوا بالناموس الطبى فى الوصايا والعلوم وسائر ما فى الصناعة وأما غير هؤلاء فلا أفعل به ذلك » .

واذا كان من الصعب البت فى تلك المسألة لضياع الصورة

الأصلية ولما اعتراها من التبديل والاضافة على يد المدارس المتتابعة والكنائس المختلفة فان هذه السرية تبدو كأنها من آثار الطقوس الفيثاغورية والأورفية وغيرهما من المـذاهب السرية السائدة فى هذا العصر .

ولكن الروح العالية المنزهة التى تسود فقرات القسم تظهر دون شك المكانة السامية التى أحل فيها أبقراط مهنة الطب ، كما أن تعهـد من يؤدى القسم بعلاج المرضى دون الالتجاء الى أى اجراء لاهوتى أو كهنوتى يبرهن على وجود فئة ـ حتى قبل أبقـراط ـ من الأطباء الأحـرار فى ممارسة مهنتهم ، لا يخضعون الا لقوانين آداب مهنتهم التى أخذوا على أنفسهم بها .

أما أبقراط نفسه فاذا أخذنا جدلا برأى من أنكر تاريخيته وأكد أنه شخصية خيالية ، واذا قبلنا أن الأغريق اختلقوه ، فان هذا يضيف الى اعجابنا بهم اعجابا ، فلم يؤلف قوم من الأساطير البتة الا ما هو جدير به ، ولم يختلق شخصية لا ليودع فيها مثله العليـا .

مدرسة قنيدوس :

وهناك مدرسة أخرى ازدهرت فى الوقت نفسه ، ونافست تعاليمها تعاليم قوس ، وهى مدرسة قنيدوس الواقعة على الشاطىء الآسيوى المقابل لقوس ، والتى أنجبت الفطاحل أمثال الفلكى ذى الشأن أودكسوس (٤٠٩ ـ ٣٥٦ ق. م.) الذى حدد عدد

أيام السنة بأنها ٣٦٥ يوما وربعا ، والمعمارى ستراتوس الذى شيد منارة الاسكندرية ، وبعض علماء الأطباء الذين عملوا بالاسكندرية .

وقد تميزت قنيدوس بنظريات كان لها شأن عظيم فى التفكير الطبى المصرى القديم من قبل ، وربما ورثتها عنه ، وهى آراء ما نزال نرى آثارها فى الطب الحديث . فقد نشأت بها فكرة البريتوما Peritioma أى الفضلات المسببة للمرض ، التى أخذ بها جالينوس فيما بعد ، وهى القائلة بأن اجتياز هضم الغذاء حدوده الاعتيادية ، ينتج عنه ظهور مواد غير طبيعية تسرى فى الجسم . وان الغائط ان كان ينتج عن هضم الأغذية Pepsis فان التعفن ما هو الا خطوة فى تلك العملية اجتازت الحدود الطبيعية فأصبحت مرضية . وقد كان المصريون من قبلهم يعتقدون أيضا أن سوء التغذية أو الافراط فيها أو دخول عوامل خارجية على عملية الهضم تؤدى الى النتيجة نفسها ، الى حد انهم كانوا يؤمنون بأن الديدان المعوية قد تنشأ بالطريقة ذاتها .

الطب الإغريقي بعد أبقراط

أرسطو ـ الاسكندرية ـ روما ـ جالينوس

تبع أبقراط ابناه تسالدس ودراكو وصهره بوليبوس ، وظلت مدرسته محافظة على مكانتها العلمية الرفيعة الى درجة أن أمراء الشرق كانوا يتخيرون أطباءهم من بين أتباعها . ويبدو أن أحد هؤلاء الأتباع ، وهو فيلومنوس ، نقل كتب الأوبئة مع مكتبة مدرسة قوس الى مكتبة الاسكندرية فى القرن الثالث قبل الميلاد .

ثم ظهر أفلاطون الفيلسوف ، وأقحم نفسه على الطب ، وأخذ يفرق بالجدل الفلسفى بين نظريتين ، احداها القائلة بأن الجسم يكيف الذهن والأخرى الآخذة بأن الذهن يعين الجسم ، وهذه الأخيرة أخذ بها سقراط بالاضافة الى أفلاطون ، اذ آمن بخلود الروح واستقلالها ، وبحرية الارادة .

أرسطو :

ثم نجد من بعدهما أرسطو أستاذ اسكندر المقدونى ـ وهو بيولوجى أكثر منه طبيب ـ يعكف على الملاحظة ، ويقوم بالتجارب البيولوجية ، ولا يتحرج من أن ينادى باجرائها على أدنى الفصائل الحيوانية من دون شعور بالاشمئزاز ، اذ أنه كان يؤمن بأن الطبيعة لا تعتمد فى خلقها على الصدفة ، وبأن كل

عمل لها يؤدى حتما الى غاية معينة . ونراه يقسم التركيب (Organization) الى درجات ثلاث :ــ

أولاها : التركيب الذى يتناول الأركان الأولى ، وهو الذى يمنح كلا من هذه العناصر خواصه الطبيعية .

والثانية : تركيب الأنسجة المتجانسة مثل العظم أو اللحم .

والثالثة : تركيب الأعضاء غير المتجانسة العناصر مثل اليدين والوجه وغيرهما ، مما يحتوى أنسجة مختلفة مثل اللحم والعظم والأوعية ... الخ . وفى هذا أول أساس لتقسيمنا الجسم الى أنسجة والى أعضاء . ولا يقتصر أرسطو فى دراسته على مقارنة الأعضاء ذاتها فى مختلف الحيوانات ، كالرئة مثلا فى مختلف الأجناس ، وانما يهتم كذلك بدراسة الأعضاء المتقابلة فى الحيوانات المختلفة التركيب ، مؤسساً بذلك علم التشريح المقارن . ثم يدرس تطور نمو الجنين فى البيضة مؤسساً بذلك علم الأجنة .

ومن استنتاجاته التى تضاهى أحدث التعميمات أن خلو جسم الانسان من الشعر أو من أى غطاء آخر ، وعدم تخصص أعضائه تخصصاً ضيقاً لهما ميزتان هامتان على سائر الحيوانات ، اذ أنهما يسمحان له بتنوع كبير فى أساليب الوقاية والهجوم والدفاع ، كما يعينانه على التأقلم فى محيطه ، كأن يده مثلا تقوم مقام النعل والحافر والقرن ، وكذلك السيف والرمح وغيرهما من الأسلحة مجتمعة لما وهبته يده من قدرة القبض على كل منها .

وبعد مضى زمن على أبقراط أصيبت تعاليمه بالجمود ،

وستقرت فى قضايا صلبة يتناقش الأطباء فى حرفية ألفاظها غير معيرين الى نبها أدنى اهتمام ، بحيث أدى هذا التحــول الى الاكتفاء بمحاولة تفسير النصوص . أما جوهر طريقة أبقراط وهو الملاحظة الحرة الطليقة من كل قيد ، والبحث عما يفيد المريض دون الاهتمام بالنظريات ، فقد أصبح شيئاً ثانوياً لا يبــالى الأطباء به . ومثل هذا التصلب حدث فى الوقت ذاته لفلسفة سقراط حين استحالت طريقته الجدلية الى جــدل عقيم حول نصــوص وتأملات ميتافيزيقية ، فاضمحلت المدارس الكبيرة وتحولت الى طوائف صغيرة .

الانتقال الى الاسكندرية :

وقد شاهد القرن الرابع ق. م. حوادث قلبت تاريخ العالم ، فعندما دخل الاسكندر المقدونى مصر وآسيا ، انتقلت الحضارة الاغريقية معه وسارت فى اثره ، فانتشرت فى الشرق حتى وصلت الى الهند وجاورت الحضارات الشرقية وتأثرت بها . وتركزت الحضارة والعلوم فى مدينة الاسكندرية التى أنشئت سنة ٣٣٢ ق. م. واحتلت مركز التجارة فى البحــر الأبيض المتوسط ، وأصبحت نقطة التقاء كل الشعوب والحضارات . فازدادت ثروة البطالمة وازدانت عاصمتهم بعلم الاغريق وفلسفتهم وفنهم ، فقد استقدمت هذه الأسرة المتنورة الفلاســفة والعلماء ، وجمعت التحف ، وكونت مجموعة ضخمة من مؤلفات المصريين والاغريق وغيرهم . واذا بالاسكندرية تفخر فى ذلك الوقت بأمثــال

أقليدس وأرشميدس وغيرهما ، وبالكشوف التي وصلوا اليها في علوم الفلك والجغرافية والهندسة والرياضة ، واذا بالأذهان تنشغل بالبحث عن علة الوجود ومظاهر الحياة المختلفة ، وتنفتح الى أديان جديدة وعقائد غريبة تثير مناقشات لا تنقطع حول الفلسفة وتفسير النصوص . ولذا فقد تميزت هذه الحقبة بالصراع المستمر بين الواقعية والصوفية من ناحية ، وبين التشكك والايمان بأعجب الخرافات من ناحية أخرى .

وقد عاد الطب تحت ظل البطالمة من اليونان الى موطنه الأول بمصر ، ولئن كانت لغة البطالمة هي الاغريقية — وهي لغة العالم المتمدين في ذلك الوقت — ولئن أصبحت تلك اللغة كذلك لغة مصر الرسمية ، ولئن اتخذ علماء مصر لأنفسهم أسماء ذات رنّة اغريقية ، فلم يخف علينا ، مع ذلك ، أن أغلبية السكان الساحقة ، حتى في مدينة الاسكندرية ، كانت من المصريين الأصليين ، الواثقين من عراقة أصلهم وأصالة مجدهم وثوقا يجعلهم يفخرون بتراث ماثل في أذهانهم ، وبذلك تشهد ثوراتهم العنيفة ضد بيزنطة ، وانشقاقهم على مذاهبها الرسمية ، واعتناقهم المذهب اليعقوبي القائل بتوحيد الطبيعة ، وتحملهم في اثر هذا أشنع اضطهاد ، بل أن الدين المصري القديم اكتسح في الاسكندرية الدين الوثني اليوناني وجعل منه خليطا تغلب فيه الصبغة المصرية .

وقد ظهر في ذلك الوقت بالاسكندرية علمان من أعلام الطب : أولهما هيروفيلس (٣٠٠ ق. م.) الذي هوى التشريح

ووصف الاثنى عشر والمخ والمخيخ والنخاع الشوكى والأوعية اللمفاوية ، وفرّق بين العصب والوعاء ، وفطن الى أن الأعصاب تنقــل الحس وتدفع الى الحركة ، وكان أول من عدّ النبض مستعينا بساعة مائية . وقد يكون اقتبس هــذا الابتكار من تعاليم أطباء الفــراعنة السرية (٢ و ٣) ، كما أنه حاول حل مشكلة حركة الدم .

وثانى العلمين هو أيراز ستراتوس (٣١٠ ــ ٢٥٠ ق. م.) من تلاميذ مدرسة قنيدوس المنافسة لمدرسة قوّ . وهو أول من أنكر نظرية الأخلاط السائدة وأولى الأنسجة والأوعية المحل الأول فى دراسة الأمراض ، فشرح الجثث باحثــا عن سبب عضوى بها .

وفى صدد البحوث التى سنعرض لها فى سياق حديثنا عن ابن النفيس بطل هذا البحث ، نجد أن أيرازستراتوس أول من قال ان الهواء يدخل عن طريق الرئة الى القلب حيث يكوّن روحا تنقلها الشرايين الى سائر أجزاء الجسم وان الروح الحيوى يتحول فى الجسم الى روح حيوانى تحمــله الأعصاب ، الى الأعضاء ، وهما الركنان اللذان أسس عليهما جالينوس نظريته فى حركة الدم وفى وظيفة الجسم عموما وشيد عليهما بناء ظل جامدا لم يجرؤ أحد على مسّه حتى القرون الوسطى . وقد كاد أيرازستراتوس أن يكشف عن الدورة الدموية كما نراها الآن ، عندما قال ان الدم يتطرق من الشرايين الى الأوردة عن طريق أوعية موصلة دقيقة للغاية .

الا أن أتباع هذين العالمين المبتكرين لم ينهجوا نهجهما فى توخى الملاحظة الدقيقة والبحث التجريبى المجرد عن اعتبارات نظرية ، بل اكتفوا بانتمائهم الى مدرسة هذا أو ذاك وباعتمادهم على نصوصهم التى انتهوا اليها قبلهم ، وأكبّوا على الجدل العقيم حولها فلقبوا بالمتعسفين (Dogmatists) وحدث بعد ذلك رد فعل اذ ثار عليهم آخرون ابتـدعوا حركة كانت على جانب كبير من الخطورة وهى الحركة التجريبية (Empiricists). تجرد التجريبيون من كل تعـاليم الطب الفلسفى أو التـأملى وأعلنوا سيادة التجربة على أنها المصدر الوحيد لتعلم فنون الطب ، وقسموها الى ثلاثة أركان [1] هى : الملاحظات الشخصية ، وملاحظات الغير، والقياس. وقدامتازوا ، وأشهرهم هيراقليدس، بمعرفة فائقة للعقاقير والسموم ، الأمر الذى حدا ببعض الملوك الى التتلمذ عليهم للوقوف على أسرارها ، أمثال مترايداتس ملك البنط الذى نسبت له طريقة التحصين ضـد السموم بتعاطى جرع متصاعدة منها (متريداتزم) .

والى جانب المـدارس الثـلاث ، وهى الهـيروفيلية ، والأيرازستراتية ، والتجريبية ، ظهرت فيما بعد طوائف النفثيين (Pneumatists) الذين أسندوا القوى الحيوية الى النفث أى الى نوع من الروح الحيوى يسرى فى الجسم ، والتوفيقيين أو الأصطفائيين(Eclectics)الذين حرصوا على عدم التحيز لأية مدرسة والذين برع منهم روفوس الأفسـى (نسبة الى مدينة

---

(1) سميت هذه الأركان Tripod : ركيزة ثلاثية القوائم .

أفسس) وأريتاكوس أول من فطن الى حدوث الشلل فى النصف المقابل للجسم اذا حـدث نزف فى المخ وفى النصف نفسه اذا حدث نزف فى النخاع الشوكى ، ومنهم أيضا ديوسقوريدس مؤلف المادة الطبية التى اقتبس منها العرب الشيء الكثير .

وفى وسط هذا العالم المتخبط سطع فى القرن الثانى الميلادى نجم عبقرى من أعظم عباقرة البشر ، وهو جالينوس ، المنتمى الى أسرة الأسقلبياد ، وهى أسرة كانت ترفع نسبها الى الطبيب الأسطورى أسقلابيوس الذى نادى به الأغريق الهاً للطب . وتعد كتابات جالينوس البلورة التى تجمد فيها الطب القديم . فان هذا العالم الجبار شيد من الطب بناء متكاملا متناسقا يتفق من جهة مع فلسفة الرواقية [1] الذين كان ينتمى اليهم ، ومن جهة أخرى مع النظرة الغائية (Teleological) الى الكون التى ترى أن الطبيعة كلها حكمة ، وأن كل جزء من الجسم خلق لغرض حدد له سلفا ، وأن هنالك عـلاقة كاملة بين السبب والغرض تقوم دليلا قاطعا على كمال الطبيعة .

راقت نظريات جالينوس فى أعين الكهنة المسيحيين ، الذين أهملوا ما لا يتفق منها مع عقائدهم مثل وجود روح فى الكون ، مكتفين بالترحيب بتوحيده الدينى ، فأيدوه تأييدا مطلقا الى حد أنه لم يجرؤ على مناقشة أقواله حتى عصر النهضة الأوروبية الا علماء معدودون ، لئلا يرموا بالهرطقة أو الجهل .

وقد قامت شهرة جالينوس على أسس راسخة من الجدارة .

---

(1) Stoics

وكانت تعاليمه مبنية على كنز من المعلومات التى استنبطها من تشريح الحيوان والأجنة وتفحص الجرحى وملاحظة المرضى ، وله من الكشوف الأخرى ما يبعث أشد الدهشة والاعجاب . الا أن اتجاهه الفلسفى أضر بنتائجه العلمية ، اذ أنه ، نتيجة لآرائه السابقة للتجربة ، أخذ يواصل البحث عن البرهان عليها ، وكان يخضع نتـائج تجاربه لها ، فزعم لتـدعيمها من المزاعم ما ليس له أساس من الواقع ، مثال قوله ان الأعصاب جوفاء لدى الأحياء وتتصلب بعد الموت ، وان هناك منفذا بين بطينى القلب ، وان الرحم له قرنان ، الأيمن لتكوين الذكور والأيسر لتكوين الاناث ، الخ . كما أُخذت عليه مآخذ كثيرة ، منها أنه كان يزعم الالمام بكل شىء وأنه لم يتحرج قط من ازجاء اجابة لكل سؤال ، وأنه لم يتورع عن التهكم على زملائه بسخرية لاذعة .

توفى جالينوس سنة ٢٠٠ م على وجه التقريب . وكان معنى انتصاره على شتى المدارس المتنازعة توحيد الطب بشكل سيطر على الفكر الطبى حتى أيام باراسلسوس [1] فى القرن السادس عشر الميلادى . ولتلك السيطرة ولطول بقائها أسباب وجيهة ، منها أنه كان مبتكرا حقا ، وأسباب أقل وجاهة كربطه الطب والفلسفة بأواصر متينة ، بل انه مزجهما فى مركب واحد ، وهذا

---

(١) باراسلسوس : تيوفراستوس بباستوس فون هوهنهايم (١٤٩٣ ـ ١٥٤١ م) طبيب سويسرى ذو نظريات ثورية ، أحرق كتب جالينوس علنا فى ميدان مدينة بازل ، هاجم أطباء عصره ، وطرد من جامعة بازل ، ادخل عقاقير جديدة فى العلاج .

فى عصر كان مولعا بالفلسفة ، واقامته الطب على نظرية موحدة تفسر كل ظاهرات الصحة والمرض بطريقة تروق العقل المنظم

الا أن أتباعه صنعوا ما صنع أتباع أبقراط وتلاميذ هيروفيلوس وأيرازستراتوس ، فاكتفوا بالنقل والتصنيف . ولئن شايعوه أحيانا فى توصيته بالدأب على التشريح ، فانهم أجروا الصفات التشريحية لمجرد رؤية الأعضاء استنادا على أقواله لا للتحقيق منها أو الاضافة اليها . ولذا فان كتاباتهم تبدو منقولة عن أصل واحد ولا تظهر فيها أية نزعة تميز كاتبا عن كاتب .

هذا عن جالينوس النطاسى . أما جالينوس الفيلسوف فان لآرائه شأنا كبيرا فى تكوين العقائد المسيحية ، وقد خلط من لحق به بين ناحيتيه . انظر مثلا الى مؤلفه (فى فائدة الأجزاء) [1] ان هذا الكتاب دفاع عن رأيه فى تمام الكمال الذى خلق به البارى الجسم البشرى ، ولكن هذا المؤلف فى المنطق أمسى فيما بعد المرجع الأول لكل من ابتغى دراسة تركيب الجسم ووظائفه . وهكذا أضرت فلسفته بطبه .

انحدر الطب الجالينى الى بقية العالم عن طريق مدرستين ورثتاه بيزنطة والاسكندرية .

أما فى بيزنطة فقد رضخ الطب الى الدين ، مع ما بين بعض قضاياهما من تنافر ، كقول جالينوس ان الروح مركزها المخ ، بينما كان أهل الدين يقولون انه القلب ، وقد نال من طبهم

On the use of parts (1)

كتــاب هذا العصر ، ولنذكر لهذا ، على ســبيل المثــال ، هزلية معــاصرة عنوانها (تيماريون) يجهل اسم مؤلفهــا وان كان من المؤكد أنه طبيب لما تحويه من التفاصيل ولما تصفه من خصائص مشاهير الأطباء التى يعلق عليها المؤلف فى روايته بلسان لاذع . تمثل هذه التمثيلية (تيماريون) وهو مريض وقد فقد أغلب الصفرة التى يحويها جسمه ، يقود اثنان من الجن روحه الى العــالم الآخر قائلين : « لقــد فقد رابع مقومات جسمه [1] فكيف يسمح له بمتابعة الحياة ولم يبق من المقومات الا ثلاثة ، لقد أعلن أسقلابيوس وأبقراط أن الحياة مستحيلة اذا زال أحد الأخلاط الأربعة واذ كان الجسم سليما » . الا أن محامى (تيماريون) كان متفــائلا عندما واجه زبونه المحكمة المكونة من أسقلابيوس وأبقراط وايرزستراتوس وجالينوس ، فان أسقلابيوس اعتاد التغيب بعد أن أُلّه ، وأبقراط دأب على تمتمة فصول [2] غير مفهومة ، وايرزستراتوس جاهل ، وجالينوس ــ وهو مثيل الآلهة ــ منح اجازة طويلة ليفكر فى أمور أغفلها عند كتابته عن الحميات ، وهى تفوق المؤلف الأصلى طولا .

وتنتهى التمثيلية بأن تحكم المحكمة بسلام (تيماريون) ، بانية حكمها على أن الصفرة التى فقدها هى غير الصفرة التى تكون عنصرا من عناصر الجسم ، وهذا التحايل الدقيق يقصد به المؤلف

---

(1) كان الجسم مكونا ــ حسب النظريات السائدة ــ من اربعة اخلاط : الدم والبلغم والصفراء والسوداء .

(2) الفصول حكم طبية موضوعة فى جمل قصيرة ، واشهرها فصول ابقراط .

تمثيل تفه الطريقة الجدلية التى كانت شائعة فى ذلك الوقت ، وضرورة التوفيق بين النظرية وبين الواقع .

أما الاسكندرية فقد انفصل فيها العلم عن الدين ، واصطبغ بلون لادينى سمح للمسيحيين والوثنيين واليهود على السواء بحوض ميـــدانه ، وفتح الأذهان الى الحضـــارات الأخـــرى كالحضارات الهنــدية أو الزردشتية . وبهـــذا أصـــبح الطب السكندرى قابلا للتطور والتقدم ، ولعل هذا هو السبب فى وجود بعض الخلافات بين كتب جالينوس كما ورثها البيزنطيون وبين التراجم التى قام بها نقلة العرب أمثال حنين بن اسحق من مصادر اسكندرية ، وقد يكون ردها الى أحد سببين : اما أن تكون هذه الخلافات ناتجة عن تطورات فى الطب السكندرى أضيفت الى تعاليم جالينوس وجهلها البيزنطيون أو تجاهلوها ، واما أن تكون اضافات عربية أو سورية ضاعت أصولها . ولقد روى مؤرخو العـــرب ومنهم ابن القفطى (٤) وعبد اللطيف البغدادى (٥) وأبو الفرج بن العبرى (٦) أن العرب حرقوا مكتبة الاسكندرية عند فتح مصر ، ولكن البحث الحديث أقام البرهان القاطع على خطأ هـــذا الزعم الذى ناقشه بالتفصيل محمد مجـــدى فى رده على الأســـقف قيرلس (٧) ، كمـــا أن مستشرقين عديدين أمثـــال كازانوفا (٨) ، ونايدو (٩) ، وفورلانى (١٠) استطاعوا ــ بفضل استقصائهم المصادر ــ أن يبرئوا العرب من فرية رموا بها ردحا طويلا من الزمن . وقد قال بريشيا (١١) ــ المتخصص فى تاريخ الاسكندرية ــ بصدد

حريق مكتبتى السيزاريوم والسيرابيوم فى أثناء ثورات القرن الرابع الميلادى ـــ انه من الصعب تصور وجود مكتبة عمومية كبيرة بعد القرن الرابع ، فان المدينـــة كانت ممزقة بالخلافات الدينية والسياسية ، وبثورة الشعب ضد أباطرة بيزنطة والحكم الأغريقى ، وان كان أثرياء شباب الشرق ما يزالون يتدفقون فى الاسكندرية فى آخر القرن الخامس ليتعلموا الطب والرياضة والبيان والفلسفة ، وفقا لقول ماسبيرو الذى استقى معلوماته من لفافة كبيرة الأهمية (١٢ و ١٣) .

وكانت أغلبية الأساتذة والفلاسفة حتى ابتداء القرن السادس من الوثنيين . وعندما أصبحت مدرسة الاسكندرية مسيحية أصيب التعليم العلمى بصدمة عنيفة ، اذ عندما اعتنق أساتذتها الدين الجديد ، بدأت الفوضى تدب بين مذاهب الديوسقوريين والمستجهلين (Agnoètes) الذين قالوا باحتمال جهل الله لبعض الأمور ، والروافض (Acéphales) الذين لم يعترفوا برؤسائهم اللاهـــوتيين ، والمثـــلثين (Trithéistes) الذين آمنوا بوجود ثلاثة آلهة ، والدميانيين وغيرهم ، كما أن التعليم فقد حريته وفقـــا للمؤرخين العـــرب ، ومن بينهم الفارابى الفيلســـوف البغدادى (المتوفى فى ٣٣٨ هـ ـــ ٩٥٠ م) الذى استقى منه ابن أبى أصيبعة (١٤) رواية استدعاء الامبراطور للأســـاقفة بعد غلق مدرســـة أثينا ، ليستطلع رأيهم فى مدى ما سيسمح بتعليمه من العلوم الوثنية ، فقرروا السماح بتعليم كتب المنطق حتى آخر الصور البلاغية وتحريم ما يليها . وقد ظل التعليم

العلمى مقصورا على هـذا المدى بينما ظل الشطر الآخـر من التعليم سريا حتى ظهور الاسلام . ويضيف الفارابى أن أستاذه يوحنا بن حيلان ، وهو من المسيحيين ، رفض تعليمه الأنالوطيقا الثانية أو باب البرهان الى أن سمح للأساتذة المسيحيين بتعليم هذا الجزء من المنطق للمسلمين من تلاميذهم .

ومن أبرز الذين اعتنقـوا المسيحية على كبر فى القـرن السادس ، يوحنا فيلوبونس الذى عـرفه السوريون والعرب باسم يوحنا الجراماطيقى أو يحيى النحوى ، وهو الذى دافع عن نظرية الكون حسبما ذكر فى التوراة ، ضد آراء الفلاسفة الوثنيين ، وكان أول من اعتمد على منطق أرسطو فى البرهنة على حقائق الدين المسيحى . وهذه البدعة لعبت دورا كبيرا فى المجادلات الدينية عند المسلمين واليهود وبعدهم عند المسيحيين فى القرون الوسـطى ، ومن هنا اجلال السوريين المسـيحيين لأرسطو ، وقد ورد اسم يحيى النحوى بين من قاموا بترجمة مؤلفات جالينوس فى ذلك الوقت ، ولكن مايرهوف (١٥و١٦) وتمكين (١٧) يعتقدان أن اسمه دس على هذه التراجم التى لم يكن له شأن فى نقلها .

والحقيقة أن معرفتنا لطب القرنين السادس والسابع ناقصة . الا أننا نرى حنين بن اسحق الذى اشتهر بترجماته العديدة ، يشترى فى الاسكندرية ـ ثلاثة قرون بعد الفتح الاسلامى ـ مخطوطات عديدة ليترجمها فى بغداد ، ويؤكد فى تعريبة المؤلفات

جالينوس أن أطباء الاسكندرية كانوا قد كونوا مجموعة طبيّة من ستة عشر جزءا قبيل الفتح العربى ، وأن هـذه المجموعة صـارت أساسا للتعليم الطبى الذى كان قد أصبح مدرسـيا مقصورا على الاجتماع كل يوم للخوض فى مناقشـات تنصب على هذا الجزء أو ذلك من أجزائها .

ومن المعروف أيضا أن بين من ترجموا مؤلفات جالينوس القس سرجيوس ، الذى نقل بعضها الى السـوريانية ، وهى اللغة التى كانت سائدة فى غرب آسيا .

وفى القرن السابع نشأ فى المدرسـة نفسها طبيبان هـما بولس الأجنطى (Paulus Aeginota) مؤلف « كتب الطب السبعة » اليونانيـة وأهرن القس صـاحب الكناشـة (Pandectes) الموضوعة بالسوريانية . وقد ترجم هـذا المؤلف الى العربية وكان له شأن كبير فى بدء الطب الاسلامى .

الباب الثانى

الطب العربى

كيف وصل العرب الى الطب والطب الى العرب : —

ولد النبى صلى الله عليه وسلم حوالى تاريخ وفاة الامبراطور جستنيان ، وقد أبدى (صلعم) فى أحاديثه الشريفة ، أكثر من مرة ، تقديره للطب وللتحفظ والوقاية للتحرز من المرض [1] ، ووضع هذا العلم الى جانب الفقه بين أعلى العلوم مركزا ، وقد اختلف الاسلام عن الديانات السابقة باعفائه المرضى من بعض الالتزامات الدينية [2] وباسدائه نصائح غالية فيما يخص الغذاء والعلاقات الجنسية الخ ...

ولكن العرب عند خروجهم من شبه الجزيرة شعروا بالنقص فى ثقافتهم بالمقارنة الى العجم قاطنى البلاد التى فتحوها فأسرعوا فى ملء هذا الفراغ ولم يتحـرجوا من طلب العلم الى من له به

---

(١) ومن الاحاديث المشهورة : (النظافة من الايمان) و (ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه) و (يكفى ابن آدم لقيمات يقمن صلبه) و (نحن قوم لا ناكل حتى نجوع ، واذا أكلنا لا نشبع) ثم ان الوضوء خمس مرات فى اليوم والاغتسال فى مناسبات كثيرة هى من الاسس التى بنى عليها الدين ، والحكمة ظاهرة وهى النظافة التى هى من وسائل المحافظة على الصحة .

(٢) (ليس على المريض حرج) و (فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر) .

دراية ، غير مبالين بدينه أو جنسه [1] ، وفصلوا العلم عن الدين ، وأظهروا نحو غير المسلمين تسامحا اختلف كل الاختلاف عن تعصب هؤلاء ، وقد ظهر صدى هذه التعاليم فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وفى عهد صلاح الدين الأيوبى فيما بعد .

وقد بدأت الجهود نحو استيعاب علوم البلاد المجاورة منذ عهد الأمويين بالشام . فقد ذكر ابن النديم أن خالد بن يزيد ابن معاوية استدعى بعض فلاسفة الاغريق من مصر فترجموا له كتبا كثيرة فى الكيمياء والطب والفلك .

واستقى العرب العلوم من منبعين : أحدهما شربوا منه محليا فى البلاد التى فتحوها مثل الاسكندرية وأنطاكية وحران ، والثانى وردت اليهم مياهه كما ينساب النهر ، من سيل النساطرة الهاربين من اضطهاد بيزنطة وغيرهم من العلماء بعد أن أغلقت مدرسة حران فى سنة ٤٨٩ م ومدرسة أثينا فى سنة ٥٢٩ م

وكان النساطرة ، وهم المؤمنون بأقوال نسطوريوس ، كفرة فى عين اللاهوتين الرسميين فى بيزنطة ، فلجأوا — وهذا أمر يبين مدى الاضطهاد وفداحته — الى بلاد وثنية كالمملكة الساسانية الفارسية .

وكانت الشام فى ذلك الوقت أصبحت معقل العلم بعد أن انتقلت العلوم العتيقة من الاسكندرية الى أديرتها ومدارسها ، ولم تكن الشام حديثة الحضارة اذ كانت منذ سحيق العصور

---

(١) جاء فى الحديث الشريف (اطلبوا العلم ولو فى الصين) وفى احدى الغزوات طلب الى كل متعلم ان يعلم عشرة من أبناء المسلمين بدلا عن الجزية .

ملتقى الطرق التى تربط الشرق بالغرب والشمال بالجنوب ، وقد التقت فى الشام الحضارات التى توالت عليها وهى السلجوقية والرومانية والبيزنطية ، وخلفت بها رواسب على الأديم الموروث عن المصريين والفينيقيين والحيثيين والفرس والبابليين ، كما خلفت التوالى والتمازج اللذين نجد لهما أروع مثل عند مخرج نهر الكلب ، حيث ترك كل من احتل البلد حجرا تذكاريا — وهذا من عهد رمسيس وأشوربانبال الى عهد جيوش الغربيين بعد آخر حرب عالمية .

وكان اليعقوبيون القائلون بوحدة طبيعة المسيح ، وعقائدهم قريبة من عقائد القبط ، منصرفين منذ القرن الخامس الى التثقف والتصنيف فى آسيا الصغرى وفى ما بين البحرين . أما فارس فانها كانت — منذ فتح اسكندر الأكبر — مصبوغة بصبغة اغريقية قوية ، وأدى هروب اللاجئين اليها الى انتعاش هذه الثقافة الاغريقية الكامنة فيها حيث اتخذت طابعا اغريقيا سوريا .

وقد روى العرب عن تعليم الفلسفة والعلوم البحتة فى هذه الفترة روايات عديدة مليئة بالمتناقضات والاستطرادات الخيالية . جمع مايرهوف (١٥) بعض المعلومات التى استقاها من أقوال نسبها ابن أبى أصيبعة الى الفارابى ، ومن كتاب التنبيه والاشراف لعلى المسعودى ، ومن مخطوط بدار الكتب المصرية لطبيب مصرى هو على بن رضوان طبيب الحاكم بأمر الله ، وفحواها جميعا أن الأباطرة المسيحيين لم يقروا العلوم ، وانهم طلبوا تقييد دراستها ، وأن الخليفة عمر بن عبد العزيز أمر فى

سنة ٩٩ هـ (٧١٨ م) بنقل المدرسة من الاسكندرية الى أنطاكية حيث ظلت قائمة حتى عام ١١٣ هـ (٧٣٢ م) ، حين انتقلت الى حران فى عصر المتوكل .

أنطاكية :

أما عن أسباب نقل المدرسة الى أنطاكية ، فان الاسكندرية كانت فقدت مركزها التجارى والأدبى بعد الفتح ، وانعزلت عن بقية المراكز العلمية التى بدأ نورها يسطع فى آسيا ، وبالعكس فان أنطاكيا كانت مركزا اداريا وتجاريا وعلميا هاما ، تقع بالقرب من دمشق العاصمة الجديدة ، وتحيط بها الأديرة التى لم تفتأ فيها الدراسات الاغريقية تمارس منذ أن أنشأها فيهـا المطران يعقـوب قبل هذا بقرنين ، ولم تكف عن جمـع المخطوطات الثمينة .

جند شابور :

هذا عن العـلوم البحتة ، أما الطب فانه انتقـل أولا مع النساطرة الى جند شابور بخوزسـتان فى فارس وبالقرب من العراق . شيّد هذه المدينة ، التى لم يبق منها اليـوم الا قرية صغيرة اسمها شاه أحاد ، شابور الأول فى القرن الثالث الميلادى (ومن هنا اسمها جند شابور)، وأقام فيها شابور الثانى مدرسة ومستشفى سنة ٣٤٠ م . ونظرا لما امتاز به عاهلو هذه البلاد فى هذا الوقت من التسامح وسعة التفكير ، سرعان ما أصبحت هذه المدرسة حقلا خصبا للأفكار الجديدة ، ازدهر فيها الجدل

الدينى الحر بين الفرس واليهود والنصارى والصابئة والوثنيين ، وبفضل تلك الحرية التى جعلت من هذه البلد ملجأ لكل من اراد الفرار من التزمت والتضييق اللذين كانا يحاصران العلم، وبفضل وجود مدرسة للطب ومستشفى منظم أحسن تنظيم وصيدلية غنية عامرة ، بهذا الفضـــل أصبحت مركزا طبيا هاما ، رعاها حكام فارس فى أول أمرها والخلفاء العباسيون من بعدهم ، حتى انتقال تعاليم الطب الى بغداد باستدعاء خلفاء بغداد أبرز علمائها أمثال حنين بن اسحق .

غـــير أن أهميـــة الشــــام ودمشق ــ عاصمة الأمويين ــ نقصت بعد سقوط الأمويين وانتقال العاصمة الى بغـــداد سنة ١٤٤ هـ (٧٦٢م) ، وأصبحت بغداد ، وهى مقر خلافة المأمون ، المركز الثقافى للخلافة . فانعزلت أنطاكيا كما انعزلت الاسكندرية من قبلها ، وغادرها آخر أستاذ للفلسفة يصحبه آخر تلميذين له الى حران ، حسبما روى الفارابى ، وكانت حران مركزا هاما للصابئة الوثنيين وللنساطرة الذين كانت تحيط بها أديرتهم ، وهى قريبة من ســـامراء التى حلت محل بغـــداد من ٢٢١ هـ الى ٢٧٥ هـ (٣٨٦ الى ٨٨٩ م) ، ثم انتقلت مدرسة حران الى بغداد نهائيا فى عصر الخليفة المعتضد . فكان خط سير الطب الجغـــرافى مختلفا عن خط ســـير العلوم البحتة . ويمكن أن تعد جند شابور النواة التى نشأ منها الطب العربى .

تعريف الطب العربى

تعريف الطب العربى ، أو ما يطلق عليه هذا الاسم ، من الأمور الداعية للحيرة ، فان عرّفناه بأنه طب شبه الجزيرة العربية لم نسلك جادة الصواب ، اذ أنه ظهر وترعرع بعيدا عنها فى العراق والشام ومصر وفارس والأندلس . وان سميناه طب الاسلام استبعدنا جماعات الصابئة والمسيحيين واليهود والمجوسيين والوثنيين الذين برعوا فيه تحت ظل الاسلام ، وان قلنا انه طب أهل الجزيرة ما أصبنا اذ أن العلماء الذين ابتدعوه ضمّوا من الفرس والسوريين والمصريين والمغربيين وأهل الأندلس ما يربى بكثير على عددهم من أهل الجزيرة .

ولا أدل على طابع هذا الطب الدولى من مجرد سرد عناوين الأبواب التابعة لباب أطباء الاسكندرية فى « عيون الأنباء لطبقات الأطباء » لابن أبى أصيبعة (١٨) .

الباب السابع : فى طبقات الأطباء الذين كانوا فى أول ظهور الاسلام .

الباب الثامن : فى طبقات الأطباء السريانيين الذين كانوا فى ابتداء ظهور دولة بنى العباس .

الباب التاسع : فى طبقات الأطباء النقلة (أى الذين كان كل نشاطهم مقصورا على الترجمة) .

الباب العاشر : فى طبقات الأطباء العراقيين وأطباء الجزيرة وديار بكر .

الباب الحادى عشر : فى طبقات الأطباء الذين ظهروا فى بلاد العجم .

الباب الثانى عشر : فى طبقات الأطباء الذين كانوا فى الهند .

الباب الثالث عشر : فى طبقات الأطباء الذين ظهروا فى بلاد المغرب وأقاموا بها .

الباب الرابع عشر : فى طبقات الأطباء المشهورين من أطباء ديار مصر .

الباب الخامس عشر : فى طبقات الأطباء المشهورين من أطباء الشام .

ولئن وقفنا بعيدين عن التحيز لرأى بعينه فانه ينبغى لنا أن نذكر أمرا ، ونحن فى صدد مظهر هام من مظاهر الحضارة العربية ، وهو الحركة الشعوبية التى كان قوامها التسوية بين كل المسلمين مهما اختلفت أجناسهم وتباينت ، هذا مع مقاومة ادعاء العرب بتفوقهم الفكرى على غيرهم من الأجناس ، وتلك هى الحركة التى ظاهرها أمثال البيرونى وحمزة الأصفهانى وانتصر لها العرب وغير العرب سواء بسواء .

والأدب نفسه لم يكن احتكارا للعرب ، فنحن نقرأ عن أعلام فى ميادين فقه اللغة ومفرداتها وصرفها ونحوها لم يكونوا

من العرب ، أمثال : الجوهرى التركى الأصل صاحب «الصحاح» وهو من أهم المعاجم ، أو ابن جنى مؤلف « الخصائص فى فقه اللغة » وكان أبوه مملوكا يونانيا .

وفى ميدان العلم ساد الطابع نفسه حتى أن ابن خلدون أفرد فصلا فى « مقدمته » موضوعه : « فى أن حملة العلم فى الاسلام أكثرهم من العجم » . والحقيقة أن الطب العربى كان انتاج حضارة لا انتاج شعب ، ولقد كان من الظواهر التى يتعذر تفسيرها دون العودة الى مسالك العوامل التاريخية واتجاهاتها ، والى مدى استعداد الشعوب للانقلابات الفكرية والتبلورات الحضرية . فقد ظهر الاسلام فى عهد ساد فيه التزمت والانقسام محررا لأذهان امتلأ بعضها بالمعلومات المتوارثة ، وتعطش البعض الآخر اليها ، والوصل بين البعض والآخر محرّم ، انبثق الاسلام كالرجة التى تعيد الجزيئات المغنطة الى خطوط قواها ، ثم صهر عناصر الشعوب المغلوبة فى بوتقة واحدة وصبّها فى قوالب متجانسة . ومن أهم مزاياه أنه فصل العلم عن الدين فأعاد اليه حرية البحث والانطلاق .

وقد تمشى الطب فى ذاك العهد موازيا لخطوات تطور الامبراطورية الاسلامية ، فقد كان انتصار الاسلام فى أول الأمر سياسيا ، وفى هذه المرحلة كانت أغلبية الأطباء من العرب الا القليل النادر . ثم كان انتصاره دينياً فى عهد بنى العباس ، باعتناق البلاد المغلوبة الدين الجديد ، وفى النهاية سادت لغة العرب حتى أصبحت لغة التعامل الدولى ، وذلك بعد مقاومة

كان أشدها فى البـلاد التى اختلفت عناصر لغتهـا عن عناصر العربية ، أمثال ايران . وكان أهم سبب لهذه السيادة تركيز الاتجاهات الفكرية فى بلدان ناطقة بالعربية كبغـداد والبصرة والكوفة ، التى ورثت منزلة اسكندرية البطالمة . ولقد كانت لغة العرب لغة العلم قبل أن تصبح لغة الشعب ، بل انهـا لم تنتصر قط فى التفاهم اليومى على اللغـات الشعبية فى ايران وبعض المناطق النائية من لبنان أو سورية التى ما تزال الى اليوم تنطق باللهجة الايرانية أو السوريانية .

وقد قسَّم الدكتور محمد عبد الحليم العقبى (١٩) تاريخ الطب العربى الى مرحلتين : مرحلة الترجمة والتحصيل ، وهى التى أفرد لها ابن أبى أصيبعة باب النقلة من الأطباء ، وهذه تمتد من أول ظهور الاسـلام الى حوالى سـنة ٢٣٥ هـ / ٨٥٠ م ، والثانية مرحلة الأصالة والاستنباط .

مرحلة النقل والترجمة :

يرجع الفضل فى نقل النصوص القـديمة الى العربية ، الى الخلفاء المستنيرين الذين لم يقصروا فى استدعاء العلماء والمترجمين وفى شراء المنسوخات القديمة . أما عملية النقل ذاتها فانها كانت مهمة علماء العجم ، وأغلبهم من المسيحيين المحليين أو المستوطنين من السوريين أو البيزنطيين ، وقد نقلوا أغلب النصوص الى السوريانية أولا ، ثم منها الى العربية ، وقد اشترك معهم بعض حديثى العهد بالاسلام أمثال على بن أبى ربن الطبرى اليهودى

الأصل مؤلف (فردوس الحكمة) وهى موســوعة اعتمد فى تأليفها على الطبين السوريانى والهندى .

وأهم من قام بهذه العملية الضخمة هم النساطرة ، ومنهم الراهب سرجيوس ، وأسرة بختيشوع التى أنجبت ست سلالات متوالية من الأطباء فى خلال مائتين وخمسين من السنين ، أبرزهم جبريل بن جورجيوس الذى عمل فى جند شابور فى أول الأمر ثم فى بغداد .

وظهر فى الوقت نفسه طبيب يعقوبى ، أصــله من مدينة نينوى بالعراق ، هو أبو زكريا يوحنا بن مساويه الذى عمل طبيبا خاصا لدى ستة من الخلفاء على التوالى ، منهم هارون الرشيد والمأمون . وقد خلف تراجم هامة منها الكناشة وكتاب الأقراباطين وبعض الملاحظات فى تشريح القــرود وفى الرمد وأمراض النساء والتغذية .

ورثاه أحد الشعراء قال :

ان الطبيــب بطبــه ودوائــه
لا يســتطيع دفاع أمر قــد أتى
ما للطبيب يموت بالداء الذى
قد كان يبرىء منه فيما قد مضى
مات المداوَى والمداوِى والذى
جلب الدواء وباعه ومن اشــترى

وأهم تلميذ له كان حنين بن اسحق ، وهو نسطورى من الحيرة ، عمل بدمشق وبغداد ، وكان المترجم الرسمى للمأمون

وللمتـوكل وطبيبهما الخاص ، وهو مبتكر أغلب المصطلحات الطبية العربية ، وقد عرّب نحو مائتي مؤلف ووضع كتاب العشر مقالات فى العين وهو أقدم ما ألف فى أمراض العين بطريقـة علمية . وقد امتاز بسموّ خلقه حتى انه كان يرفض الامتثال الى أوامر الخليفة اذا خالفت عقائده وقد ذاع صيته فى عصره بوصفه أخطر أطباء الاسلام .

وقد أتم عمله من بعده نجله اسحق ، وابن أخيه حبيش الذى عرّب قَسَم أبقراط ، ومن تلاميـذه عيسى بن يحيى وعيسى بن على الرمدى وقسطا بن لوقا البعلبكى ، ثم جاء يوحنا ابن سرافيون (يوحنا الدمشقى) السوريانى الأصل ، الذى ألف (فصول) و (كناشة) ترجمها جيرار دى كريمون وطبعت أول مرة فى البندقية فى سنة ١٤٦٩ م .

أما العرب الأصليون ، أمثال الكندى وابن كلدة ، فكانوا قلة . ولذا فان الطب العربى كان فى أول أمره طبا أعجميا ولم يكتسب لونه العربى الأصيل الا فى الحقبة التالية .

مرحلة الازدهار والاثمار :

بدأت الزهور تتفتح بعد أن غرس بذورها جهاز المترجمين الذى خلقه الخلفاء فى بغداد . حدث هذا فى أوائل القرن الثالث الهجرى أو التاسع الميلادى ، وظهر على شكل (روضة) فى كل امارة من الامارات العربية ، التى حاولت كل منها منافسة أختها فى الجاه وفى ميادين العلم والفكر . ومن الغريب ــ وقد تكون

هذه الظاهرة ذات معنى ــ أن بوادر هذا الربيع ظهرت أولا فى أطراف الدولة الاسلامية ، أى فى فارس والأندلس ، قبل أن تثمر فى المغرب وفى مصر .

فقد أسس بنو أمية فى سنة (٩٢٩ م) مدينة قرطبة جوهرة العالم ، وأنشأوا بها مكتبة حوت ٤٠٠,٠٠٠ مجلد ، وقد بلغ الاهتمام بالعلم فى تلك العاصمة أن ابن رشد قال عنها ما فحواه أنه اذا توفى الله عالما من العلماء وأريد بيع كتبه ، فلتحمل الى قرطبة حيث يوجد يقينا (من يشتريها) .

وقد نشأ فى خلال هذه الحقبة أكبر فلاسفة العرب وأطبائها أمثال الرازى وابن سينا والزهراوى وابن رشد والمجوسى ، وبعضهم من الفرس والبعض من الأندلسيين . وتطور الطب وترعرع فى الاطار الذى أتاحته التقاليد والذى واءم طبائع العلماء . فقد حدت التقاليد من ممارسة تشريح الجثث الآدمية فتحجر علما التشريح والفسيولوجيا فى القالب الذى صبهما فيه جالينوس وأبقراط ، ولكن النزعة العملية التى يمتاز بها الشرقى ، وميوله الفكرية ، اجتذبته نحو أربعة اتجاهات : أولها الملاحظة الاكلينيكية الدقيقة والتدريس الى جانب السرير بالمستشفيات ، وثانيها الكيمياء وكان رائدها عراقى من الكوفة هو أبو موسى جابر بن حيان (٨٣ ــ ١٤٨ هـ / ٧٠٢ ــ ٧٦٥ م) الذى رسمت حول صورته الأساطير وما تزال مصطلحات الكيمياء فى كل اللغات تقتبس تسمياته ، وثالثها هو علم النبات وخواصها حيث أضاف العرب الى تراث ديوسقريدس مفردات عدة أخذوها عن

آسيا وافريقية ، ورابعها تحسين وتنظيم المستشفيات التى ورثوا فكرتها عن بيزنطة .

وهذه الصفات الأربع ، بالاضافة الى فضل العرب فى الاحتفاظ على التراث القديم وفى اتاحته لعلماء النهضة الغربية ، هى المميزات التى جعلت من الطب العربى سراجا وهاجا أضاء العالم قرونا عديدة . ولنشر فى اختصار الى أربعة ممن شاركوا فى هذه النهضة .

ابو بكر محمد بن زكاريا الرازى :

ولد فى الرى بالقرب من طهران ويعده الكثيرون من مؤرخى الطب أعظم أطباء العرب وأكثرهم طرافة ، ضرب العود فى أول حياته وتتلمذ فى بغداد حيث مارس مهنة الصراف ، وبعد جولات فى البلاد المختلفة عاد الى بغداد تلبية لدعوة الخليفة المنصور ليدير شئون المستشفى الجديد ، لما حاز من الصيت الطيب فى الشرق بأجمعه ، وضع مائتى مؤلف أو تزيد فى الفلسفة والفقه والرياضة والفلك والطب . وفى أخريات حياته أصيبت عيناه بداء الماء الأبيض ، فلما أراد أحد الجراحين اجراء جراحة لازالة هذا الداء سأله الرازى سؤالا فى تشريح العين وأخطأ الجراح فى الاجابة فأبى الرازى أن تجرى له الجراحة قائلا : لقد أبصرت من الدنيا حتى مللت . ومات سنة ٩٠٣ أو ٩٢٣ م بصيرا فقيرا . وقد روى ابن خلكان أن الرازى صنف كتابا فى الكيمياء لمنصور بن اسحق فأعطاه ألف دينار والآلات اللازمة لاجراء

العمليات الموصوفة فى الكتاب ولم يفلح الرازى فى هذا فأمر المنصور بضربه بالكتاب على رأسه حتى يتقطع وكان هـذا الضرب سبب نزول الماء فى عينيه .

وقد امتاز الرازى بمواهبـه الاكلينيكية الممتازة . وأهم مؤلفاته هو الحاوى (Continens) وهو موسوعة تقع فى ٢٤ جزءا وتحوى كل ما قيل فى الطب من قبله . ونقله الى اللاتينية فرج ابن سالم اليهودى بأمر من شارل أنجو ملك نابولى وصقلية . وبلغ الحرص على هذا المؤلف الضخم ، بسبب قيمته النادرة ، أنه لم يُعَر الى ملك فرنسا عندما طلب استعارته من مكتبة جامعة باريس الا بعد أن أودع الملك قدرا جسيما من المال على سبيل التأمين .

ويرى أستاذنا الدكتور محمد كامل حسين أن هذا المؤلف ، مع شهرته ، لا يمثل دائما آراء الرازى ، وانما قصد به الى أن يكون تدوينا لكل ما قاله السلف . وذلك لأنه يتضمن خرافات لا يمكن أن يؤمن بها ، أما زبد تفكيره فهو موجود فى كتبـه الأخرى التى لم يذكر فيها من المعلومات المعاصرة الا ما كان يؤمن به وتلك التى عبر فيها عن حقيقة فكره ، ومن هـذه المؤلفـات : الجـامع والمدخـل والكافى والملوكى والفـاخر والمنصورى .

وقد درس أخيرا الدكتور ألبير زكى اسكندر كتاب (المرشد أو الفصول) للرازى وقد وردت به عبارات تدل على التفكير

العميق والتبويب المنطقى والشعور الانسانى الفذ ونذكر منها على سبيل المثال (٧٠) .

فصل ٣٦٤ : ليس يكفى فى احكام صناعة الطب قراءة كتبها ، بل يحتاج مع ذلك الى مزاولة المرضى ، الا أن من قرأ الكتب ثم زاول علاج المرضى يستفيد من قبل التجربة كثيرا . ومن زاول المرضى من غير أن يقرأ الكتب ، يفوته ويذهب عنه دلائل كثيرة ، ولا يشعر بها البتة . ولا يمكن أن يلحق بها فى مقدار عمره ، ولو كان أكثر الناس مزاولة للمرضى ، ما يلحقه قارىء الكتب مع أدنى مزاولة ، فيكون كما قال الله عز وجل : (وكأيّن من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) .

فصل ٣٦٨ : من أبلغ الأشياء فيما يحتاج اليه فى علاج الأمراض بعد المعرفة الكاملة بالصناعة ، حسن مساءلة العليل ، وأبلغ من ذلك لزوم الطبيب العليل وملاحظة أحواله ...

وفى صدد طريقة درس الأمراض يقول :

فصل ٣٥٠ : اطلب فى كل مرض هذه الرءوس : المسمى التعريف أولا ومثاله أن تقول : ان ذات الجنب هو اجتماع حمى حادة ، مع وخز الأضلاع وضيق فى التنفس ، وصلابة فى النبض ، وسعلة يابسة منذ أول الأمر ، ثم انه تظهر فيها صفرة ، أو حمرة ، أو سوادا ، أو نحو هذه من الفضول المقيمة لنوع ذلك المرض . فان أصبت فذلك الرأس الأول المسمى التعريف .

ثم اطلب العلة والسبب ... ثم اطلب هل ينقسم لسببه أو

نوعه أم لا ... ثم اطلب تفضل كل قسم من الآخر ... ثم العلاج ... ثم الاستعداد ... ثم الانذار .. فاذا نظرت فى كل علة فى هذه الرءوس واستوفيت ما فيها ، فقد أكملت ما يحتاج اليه منها .

ومن اضافاته الهامة الى الطب التشخيصى وصفه للطاعون ، وتمييزه ـ أول مرة فى التاريخ ـ بين الجدرى والجديرى والحصبة ، ووصفه وصفا دقيقا لما نسميه اليوم حمى الدراس (Hay fever) .

وقد أسدل صيته ستارا على معاصر له وعلى ذاكره ، وهو على بن العباس المجوسى . فارسى اعتنق الاسلام وعاش فى حاشية بنى بويه زمنا ، ووضع مؤلفا من عشرين جزءا أسماه الكتاب الملكى أو (كامل الصناعة فى الطب) وهو المؤلف الذى ترجمه قسطنطين الافريقى الى اللاتينية دون ذكر مؤلفه الأصلى ، وقد ترجمه بعد ذلك أيضا اصطفن الأنطاكى .

ومما يدل على اهتمام المجوسى بملاحظة المرضى قوله :

« ومما ينبغى لطالب هذه الصناعة ، أن يكون ملازما للبيمارستانات ومواضع المرضى ، كثير المداولة لأمورهم .. الخ » . وقد نوّه الى الدورة الدموية الشعرية وهذا ما سيجىء ذكره فى صدد تاريخ الكشف عن الدورة الدموية .

ومع صيت الرازى وعبقريته ، ومع براعة المجوسى وعلمه ، ومع ذياع شهرتهما شرقا وغربا ، فان العملاق الذى سيطر على الفكر الطبى فى البلاد العربية وفى الغرب على السواء قرونا

طويلة حتى القرن السادس عشر ، هذا العملاق هو أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا الذى وصلتنا أخباره بفضل تلميذه أبي عبيد الجوزجانى . وقد ظهرت عبقرية ابن سـينا الشاملة منذ أولى سنيه ، فقد حفظ القرآن والأدب وسنه عشر ، شفى الأمير نوح بن المنصور على يديه فسمح له بالتردد على مكتبته وقرأ فيها ما لم يقرأه أحد من قبله ، وألم بكل علوم عصره وسنه سبع عشرة ، وقال عن نفسه انه قرأ (ميتافيزيقا) أرسطو أربعين مرة وحفظها عن ظهر قلب قبل أن يتأكد من المامه بها الماما كاملا ، وعندما كانت سنه اثنتين وعشرين سنة كان قد تجول فى تركسـتان وايران والعراق وتولى منصـب رئيس وزراء شـمس الدولة أمير ولاية همـذان ، ثم خـدم الأمير علاء الدين فى أصـفهان . وكانت حيـاته حافلة بالمغـامرات والانقلابات ، تنقل فى خلالها من القصور الى السجون ، ولم يدع أية لذة الا استمتع بها قبل أن يتوفاه القدر ، وكان قد وزع ممتلكاته على الفقـراء وأعتق عبيـده ، وأدى فروضه الدينية قبل مقابلة ربه ، وكانت سنه ثلاثا وخمسين .

يسند الى ابن سينا ، أو الى الشيخ الرئيس والمعلم الثانى بعد أرسطاطاليس ، كما أسماه معاصروه وتلاميذه ولاحقوه على السواء ، ستة عشر مؤلفا فى الطب وستة وخمسين ومائة مؤلف فى غيره . وأهم المجموعة الأولى وأذيعها صيتا هو (القانون) الذى ترجمه جيرار دى كريمون فى طليطلة بأسبانيا وطبع أول مرة فى نابولى بالعبرية سنة ١٤٩١ م .

والقانون بناية جامدة من التفكير الفلسـفى فى الطب ، ترتكز على أسس عميقة من الثقافة الشاملة والتنظيم المنطقى ، أكثر من اسـتنادها الى الملاحظة الاكلينيكية ، وان وردت به أحيانا ملاحظات سريرية طريفة تدعو الى الاعجاب ، مثل وصفه لتقيح التجويف البلورى، وتمييزه بين الالتهاب السحائى وتهيجه ، والتشخيص التمييزى بين مختلف أنواع اليرقان وأسبابه ، كما به بعض العلاجات الجديدة كعلاج الأنيميا بالنخاع العظمى ، ولئن كان طبه وبخاصة الجزء النظرى منه ، مبنيا على طب أبقراط وجالينوس ، فقد خالفهما أحيانا خلافا أساسيا مثلا : عنـدما أسند الى الشبكية فى عملية الابصار أهميـة أكبر من أهمية العدسـة .

ولا أدل على سيطرته على التفكير الطبى من أن (القانون) طبع خمس عشرة مره باللاتينية ومرة بالعبرية فى خلال الثلاثين سنة التى ختمت القرن الخامس عشر الميلادى ، ومن أنه كان ضمن الكتب المقررة فى جامعـة لوفان ببلجيكا حتى القـرن السابع عشر ، أى بعد وفاة مؤلفه بسبعمائة سنة ، وقد لخص ابن سينا تعاليمه فى أرجوزة (٧٢) تقع فى ١٣٢٦ بيتا ، ترجمها جيراردى كريمونا مترجم القـانون وسميت باللاتينية **Cantica Avicennae** ، وقد عرّف فيها ابن سينا الطب تعريفا لم تصل الهيئات الدولية الحالية الى أحسن منه ، قال :

الطب حفظ صحة برء مرض ... من سبب فى بدن عنه عرض

أما كتاباته الفلسفية فان الفلاسفة يعدونها أقوم ما ألّف

والأساس الذى يرتكز عليه مجده والذى يزيد رسوخا عن القانون ، لما فيها من القيم الفكرية الدائمة .

وكما أن المجوسى من معاصرى الرازى ، فان جراحا فذا عاصر ابن سينا وان قضى حياته وعمل فى الطرف الآخر من الدولة الاسلامية ، وهذا العالم فى الجراحة أو كما أسماها العرب صناعة اليد (وهى ترجمة حرفية للفظة Chirurgie الاغريقية الأصل) هو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى الذى وضع (التصريف لمن عجز عن التأليف) وهو مؤلف ضخم يقع فى ثلاثين جزءا ، يتناول العقاقير والأمراض الباطنة ، بالاضافة الى صناعة اليد وأوصاف دقيقة لبعض الجراحات مثل استخراج حصاة المثانة بالشق والتفتيت ، وربط الشرايين واستئصال اللوز بوساطة سنارة ، واستئصال أكياس الغدة الدرقية ، والبتر . وبه أبواب فى الكسور والخلوع ، ولم يهمل الولادة ووصف استعمال الجفت لاستخراج المولودين . وهو أول كتاب فى تاريخ الجراحة رسمت فيه آلات جراحية ، وعددها يربو على المائتين وأكثرها من ابتكاره . وقد استند المجوسى ، الى حد كبير ، على ما كتبه قبله بولس الأجنيطى الذى عاش فى القرن السابع الميلادى . وكان له ، بدوره ، أثر عميق على كل من كتب بعده فى الفن نفسه من أمثال جى دى شولياك فى مونبلييه الذى نقل منه أجزاء عديدة . وقد دُرِس أبو القاسم وأسماه الغربيون Albucasis حتى عصر النهضة فى أوروبا ، ومن أهم ما ألح فيه ضرورة تعلم التشريح تعلما كاملا .

مرحلة الثورة الفكرية وما بعدها

انتهت مرحلة العقبى الثانية ، وهى التى أسماها مرحلة الأصالة والاستنباط ، انتهت الى ابن سينا وكان على حد قول أستاذنا الدكتور محمد كامل حسين : فيلسوفا قبل أن يكون طبيبا ، وقد حدث بعده ما حدث بعد جالينوس ، فقد أسدل هذا العملاق ظلته على الفكر الطبى قرونا ، واكتفى بتعاليمه الى آخر القرون الوسطى حتى فى أوربا ، ولم يجرؤ أحد على مناقشة قضاياه ، وتجمد الطب بعده .

وكان العالم الاسلامى قد مرَّ بعهود مختلفة وتباين شكله على مد القرون . فبعد أن ضم كل العالم المتمدين من فارس الى جبال وسط فرنسا ، بدأ يتجزأ تحت ضربات الترك والفرس ، وتأسست فيه دول شبه مستقلة ، أولاها فى الشرق دولة طاهر ابن الحسين الخراسانى الذى استطاع أن يمسك عن الدعاء للخلافة فى خطب الجمعة ، وتبعه بيت الصفريين الذين تمكنوا من بسط سلطانهم على كل فارس ومن تهديد بغداد ، ثم بنو سمان ، ثم الطورانيون .

وقامت فى أفغانستان دويلات تركية نقلت التفكك الى قلب الامبراطورية ، واستبد بأمور الخلافة داخل بغداد دخلاء من السلاجقة لم يتركوا للخلافة سوى السلطة الاسمية ، وكان المعتصم بن هارون الرشيد ، وهو من أم تركية ، أول من

استدعى الترك ، الا أن تدفق هؤلاء وسوء تصرفهم أدّيا الى ضغائن وفتن ودسائس استوجبت نقل العاصـــمة الى سامراء (سنة ٢٢١ هـ / ٨٣٦ م) ، ثم تلا هذا عهد فوضى وثورات مثل ثورة الزنوج التى زعزعت الدولة والتى انفصلت مصر فى أثنائها من الخلافة على يد ابن طولون .

لم تتحسن الحال بعد العودة الى بغداد ، وســـددت لها ضربات جديدة من الغرب ، فقد ظهر الفاطميون فى شمـــال أفريقية فى زمن المعتضد (٢٧٨ هـ ـــ ٢٨٩ هـ / ٨٩٢ م ـــ ٩٠٢ م) ، وقام عبد الرحمـــن الثالث الأموى فى الأندلس (سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٩ م) وأعلن كل منهما حقه فى الخلافة .

وفقدت بغداد مكانتها عندما تغلب أحمد بن بويه الظافر على الحرس التركى (سنة ٣٣٣ هـ / ٩٤٥ م) ، وصك النقود باسمه وحكم هو ومن خلفه بغداد من شيراز ، فانتقلت الشهرة العالمية الى هذه المدينة والى القاهرة وقرطبة . وفى سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٥ م دخل طغرل بك السلجوقى بغداد ، ودالت بهذا دولة هذه المدينة ، وآل الحكم فى شمال سورية والعراق الى ثوار انتحلوا لقب السلطان ، وكثرت النزعات دينية كانت أم قبلية أم اقتصـــادية أم سياسية ، وتفشت الأوبئـــة وانحطت روح القومية ، وكثرت الحروب ، واستبد الحكام بالأهالى وأرهقوهم بالضرائب والخراج .

وكانت الحروب الصليبية فى هذه الحقبـــة تنخر فى عظم الامبراطورية المريضة دون أن يبدى حكام بغداد أى اهتمام

بها ، فقد فتح الفرنجة بيت المقدس سنة (٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م) ، وأحدقوا بطرابلس سنة ٥٠١ هـ (١١٠٨ م) ، ومن ناحيـة أخرى اجتاح جنكس خان المغولى (٥٤٩ هـ ــ ٦٢٤ هـ / ١١٥٥ م ــ ١٢٢٧ م) العالم الاسلامى حتى سامراء ، ودخل هولاكو بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ، وانتهى بذلك تاريخ الخلافة العربية ، ثم فتح هولاكو حلب سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م)، ووصل الى دمشق وحاصرها . ولم يقم أمام المغول حاجزا حقيقيا الا احتلال بيبرس المصرى لسورية .

واذا كان الطب قد وصـل الى ذروته فى أول هذه الحقبة من تاريخ الطب العربى واذا كانت المرحلة الثانيـة من تطوره وهى مرحلة الازدهار والاثمار تجلت فى أثنائهـا فانى أود أن أضيف اليهما مرحلة ثالثة امتلأت بالثورة الفكرية والتمرد على سيطرة الأقدمين ، وهذه مرحلة حتمية فى أى تطور يستحيل الوصول الى النضج الكامل والأصالة الحقيقية دون المرور بها .

حقيقة لقد بدأت تلك المرحـلة تبدو جليـة فى أول عهد العـرب بالتفكير الشخصى . أنظر مثـلا الى عمـلاق الطب الرازى ، فقـد عثر العـالم المحقـق الدكتـور ألبير زكى اسكندر على مخطوط « كتاب الشكوك على جالينوس » ، وهو كتاب سوف يهز عند نشره أسس تاريخ العلوم ، حسبما يقول مكتشفه ، يخالف فيه الرازى آراء جالينوس فى الابصار وينتقد كتابه فى « البرهان » الذى فقد فى الأصل اليونانى .

الا أن هـذا التحرر من القيود التقليدية أبداه سافرا فى

هدوء وتهذيب ابن النفيس بطل قصتنا ، وفى عنف عبد اللطيف البغدادى الذى قال حوالى سنة ٥٩٦ هـ / ١٢٠٠ م فى مؤلفه « الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » : والحس أقوى دليلا من السمع . فان جالينوس وان كان فى الدرجة العليا من التحرى والتحفظ فيما يباشره ويحكيه فان الحس أصدق منه ... فمن ذلك عظم الفك الأسفل فان الكل قد أطبقوا على أنه عظمان بمفصل وثيق عن الحنك وقولنا الكل انما نعنى به هاهنا جالينوس وحده فانه هو الذى باشر التشريح بنفسه وجعله دأبه وصنف فيه عدة كتب معظمها موجود لدينا والباقى لم يخرج الى لسان العرب ... والذى شاهدناه من حال هذا العضو أنه عظم واحد وليس فيه مفصل أصلا واعتبرناه ما شاء الله من المرات فى أشخاص كثيرة تزيد على ألفى جمجمة بأصناف من الاعتبارات فلم نجده الا عظما واحدا من كل وجه . ثم اننا استعنا بجماعة مفترقة اعتبروه بحضرتنا وفى غيبتنا فلم يزيدوا على ما شاهدوه منه وحكيناه ، وكذلك فى أشياء أخرى غير هذه . وليت مكنتنا المقادير بالمساعدة ووضعنا مقالة فى ذلك تحكى فى ما شاهدناه وما علمنا من كتب جالينوس ، ثم أنى اعتبرت هذا العظم أيضا بمدافن بوصير القديمة المقدم ذكرها فوجدته على ما حكيت له فيه لا مفصل ولا درز ، ومن شأن الدروز الخفية والمفاصل الوثيقة اذا تقادم عليها الزمان أن تظهر وتتفرق وهذا الفك الأسفل لا يوجد فى جميع أحواله الا قطعة واحدة » .

« أما العجز مع العجب ذكر جالينوس أنه مؤلف من ستة أعظم ووجدته أنا عظما واحدا واعتبرته بكل وجه من الاعتبار فوجدته عظما واحدا ثم انى اعتبرته فى جثة أخرى فوجدته ستة أعظم كما قال جالينوس وكذلك وجدته فى سائر الجثث على ما قال الا فى جثتين فقط فانى وجدته فيهما عظما واحدا وهو فى الجميع موثق المفاصل ولست واثقا بذلك كما أنا واثق باتحاد عظم الفك الأسفل » .

وقوله أيضا : « وكلما أمعنت فى كتب القدماء ازددت فيها رغبة ، وفى كتب ابن سينا زهادة واطلعت على بطلان الكيمياء ، وخلصت من ضلالين عظيمين موبقين وتضاعف شكرى لله سبحانه وتعالى على ذلك ، فانما أكثر الناس انما هلكوا بكتب ابن سينا والكيمياء » . وقوله أيضا عن ابن سينا : « وأقوى من أضلنى ابن سينا بكتابه فى الصنعة الذى تم به فلسفته التى لا تزداد بالتمام الا نقصا » . كما قال عن موسى بن ميمون : « وجاءنى موسى فوجدته فاضلا لا فى الغاية قد غلب عليه حب الرئاسة وخدمة أرباب الدنيا وعمل كتابا فى الطب جمعه من الستة عشر لجالينوس ومن خمسة أخرى » .

الا أن هذه المظاهر ، التى تنم على الشروع فى التحرر النهائى من طغيان الأقدمين الفكرى ، قد زالت تماما بعد هذين العالمين الفذين . وقد عاصر الفتور الفكرى الذى تبع هذه الحقبة مرحلة سوداء فى تاريخ العرب ، شن أعداؤهم فى خلالها هجمات عنيفة ضد الامبراطورية العربية واحتلوا أجزاء كبيرة من أرضها وحولوا تجارتها الى طرق أخرى ...

الباب الثالث

حياة ابن النفيس

المصادر . نشاته . حياته فى دمشق

لم يكن ابن النفيس مجهولا لدى المؤرخين المعاصرين كما زعم البعض ، فقد ذكره ليكلير فى كتابه عن الطب العربى وأفرد لمؤلفاته صفحتين (٢٣) ، وانما الذى كان مجهولا لديهم هو أهمية كشوفه ، فلقد اكتفى هذا المؤرخ وهو يشير الى « شرح تشريح القانون » الذى يحوى النظرية الثورية التى ابتكرها ، بقوله ان نسخا منه موجودة فى مكتبات باريس والاسكوريال وأكسفورد وبرلين من دون أن يشفع ذلك بتعليق عليه . ويرد ذكر ابن النفيس الى أن طبيبا مصريا (هو الدكتور محيى الدين التطاوى) [1] فى خلال مطالعاته للمخطوطات العربية بمكتبة برلين عثر اتفاقا على مخطوط رقمه ٦٢٢٤٣ (٢٤) وعنوانه «شرح تشريح القانون» أى قانون ابن سينا . فعنى بدراسته وتدبيج رسالة لنيل

---

(١) الدكتور محيى الدين التطاوى ولد فى ٧ أكتوبر سنة ١٨٩٦ فى محلة منوف ، درس فى طنطا والقاهرة وحصل على الشهادة الثانوية سنة ١٩١٨ وكان ترتيبه ١٢٥ ، التحق بالمهندسخانة سنتى ١٩١٨ و ١٩١٩ ، ثم انتقل فى سنة ١٩٢٠ الى كلية طب برلين ، وبعد تخرجه عمل بوزارة الصحة حتى توفى فى سنة ١٩٤٥ ; وهو يقاوم وباء التيفوس فمات شهيد الواجب والانسانية .

الدكتوراه من جامعة فرايبورج بألمانيا ، موضوعها « الدورة الرئوية تبعا للقرشي » (٢٥) فذهل أساتذته والمشرفون عليه وما كادوا يصدقونه . ولجهلهم باللغة العربية ، أرسلوا نسخة من الرسالة الى الدكتور مايرهوف الطبيب المستشرق الألماني الذى كان اذ ذاك يقيم بالقاهرة والتمسوا رأيه فيها . فأيّد مايرهوف الدكتور التطاوى (٢٦) وأبلغ الخبر الى المؤرخ جورج سارتون الذى نشره فى آخر جزء من مؤلفه الضخم فى تاريخ العلوم (٢٧). ثم بادر مايرهوف الى البحث عن مخطوطات أخرى لابن النفيس وعن تراجم له ، ونشر نتيجة بحوثه فى عدة مقالات (٢٦ و ٢٨) وبذلك عاد نجم ابن النفيس يلمع بعد أن خبا سبعة قرون .

وقد أدى هذا الاهتمام الى الكشف عن تراجم أخرى لهذا العالم العربى الفذ ، وعن مقطّعات عنه بصرتنا بالخطوط العريضة لحياته ولشخصيته . وقد استقيت أكثر المعلومات فيها مما رواه عنه أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسى ، وهو من العلماء الذين هاجروا من غرناطة الى القاهرة حيث توفى سنة ٧٤٥ هـ (١٣٤٥ م) ، أى بعد وفاة ابن النفيس بسبع وخمسين سنة ، كما ذكرت بعض التفاصيل عن ابن النفيس فى مؤلفات مشرعى المذهب الشافعى الذى كان ينتمى اليه ، ومن هذه المؤلفات : « طبقات الشافعية الكبرى » لتاج الدين السبكى ، و « مفتاح السعادة » لطاش كوبرى زاده ، و « حسن المحاضرة » لجلال الدين السيوطى ، و « شذرات الذهب » لابن العماد الحنبلى ، و « كشف الظنون » لحاجى

خليفة ، و « تاريخ الذهبى » و « مرآة الجنـــان » لليافعى ، و « عقد الزمان فى تاريخ أهل الزمان » للعينى .

وقد عجب من تناولوا البحث فى تاريخ ابن النفيس لعدم ذكره بتـــة فى « عيـــون الأنبـــاء فى طبقات الأطباء » لابن أبى أصيبعة [1] ، مع أن ابن أبى أصيبعة عاصر ابن النفيس وتتلمذ معه على الدخوار . وزامله فى البيمارستان النورى بدمشق ثم فى البيمارستان الناصرى بالقاهرة حيث كان رئيسا لقسم الرمد وكان ابن النفيس مديرا له . هذا قبل أن يغادر ابن أبى أصيبعة القاهرة الى صرخد حيث عمل لدى أميرها عز الدين فاروق شاه شـــطرا طويلا من حياته ، فذهب هؤلاء المؤرخـــون الى أن ابن النفيس قد يكون السبب فى هجرة ابن أبى أصيبعة من القاهرة لخلاف وقع بينهما ، وقالوا ان ســـوء التفـــاهم أو

---

(١) موفق الدين أبو العباس احمد بن القاسم السعدى الخزرجى المعروف بابن أبى أصيبعة ، ولد بدمشق سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م) وكان والده كحالا ، عمل بالمستشفى النورى بدمشق ثم انتقل الى القاهرة وعمل بالمستشفى الناصرى فى سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ م) ، ومنها ذهب الى صرخد حيث توفى ســـنة ٦٦٧ — ٦٦٨ هـ (١٢٧٠ م) ، كان طبيبا ماهرا وعالما فى الأدب والتاريخ ، وله شعر كثير ، وقد اشتهر بمؤلفه « عيون الأنباء فى طبقات الاطباء » الذى وضعه فى صرخد حول سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) . وقد روجع هذا المؤلف فيما بعد وأضاف اليه تلاميذه نبذا (٢٧) ، جمعه وطبعه اول مرة أمرؤ القيس بن طحان فى سنة ١٨٨٢ م ، ثم أعاد « مولر » طبعه فى كونجزنبرج فى سنة ١٨٨٤ مستعملا النص نفسه مع اضافة ١٦٢ صفحة ، وقد عثر يوسف العيش (٢٩) على صفحات أخرى منه ، ويعد هذا المؤلف ، رغم بعض المعلومات الخاطئة الواردة فى الاجـــزاء المتعلقة بالأطباء القدامى من الاغريق وغيرهم — مرجعا أساسيا لدراسة تاريخ الطب والعلوم فى العهد الاسلامى .

الدسائس (التى فرضوا حدوثها بينهما) قد تكون العلة فى اغفال ابن أبى أصيبعة ذكره . الا أن مؤرخا عربيا هو يوسف العيش(٢٩) عثر أخيرا فى دار الكتب الظاهرية بدمشق على مخطوط لم يذكر عنوانه أو اسم مؤلفه ، تبين بمقابلته بكتاب « عيون الأنباء » أنه هو ، وذلك مع اختصار لبعض الجمل واختلاف فى بعض الألفاظ . أما الترتيب فى المؤلفين فقد وجده متشابها فيما عدا الجزء الخاص بأطباء الشام . ذلك أن هذه النسخة لم تذكر منهم الا ستة مع تراجم مقتضبة ، وكان أحد الستة : ابن النفيس ، الذى لم يترجم له فى النسخة المتداولة المطبوعة ، ترجم له فى آخر ورقة من المخطوط ترجمة مختصرة ، وقد وفقنا الى الحصول على هذا النص بفضل من الدكتور سامى حمارنة ، كبير أمناء قسم العلوم الطبية بالمعهد الشمسونى بمدينة واشنجتون ، واليك النص :

« علاء الدين أبى الحزم القرشى المتطبب ، القرش بفتحتين قرية فى قرب الشام ، فانه كان شيخا فاضلا كالبحر الخضم والطود الأشم للعلوم ولم يكن منفردا بفن من الفنون ، ولو لم يكن له غير شرح غوامض القانون لكفى به دليلا على غزارة فضله ونزارة مثله . وله مع ذلك تصانيف كثيرة فى جميع الأنواع مقبولة عند المحققين فى أكثر البقاع مشتملة على حقائق الأنظار ودقائق الأفكار ولطايف الاشارات وطرائف العبارات ، وخاصة الكتاب المسمى موجز القانون وكتاب الشامل الذى ذكر فيه اختلافات مذاهب العلماء وتفنن معتقدات معاشر

الحكماء فى أصناف العلوم والحكمة مع ما هو اللباب والنقاوة من حججهم وأدلتهم مع البسيط المشبع والبيان الشافى المقنع ، وله كتب كثيرة وتصانيف جليلة ، وله أيضا شرح الفصول لأبقراط وثمار المسائل وكتاب النبات فى الأدوية المفردة وكتاب مواليد الثلاثة وجامع الدقائق فى الطب وكتاب الشافى ورسالة فى أوجاع الأطفال » .

وقد حل" يوسف العيش ـ بعثوره على هذا المخطوط ـ لغزا حيَّر المؤرخين ردحا من الزمن ، كما أنه برّأ ابن النفيس من دسيسة أو مكيدة افتريت عليه ولم تتفق مع ما اشتهر به من سمو الخلق وطيب السريرة . وقد علل الدكتور بيطار (٣٠) عدم الاسهاب فى ترجمة ابن أبى أصيبعة بأن ابن أبى أصيبعة توفى قبل ابن النفيس بثمانى عشرة سنة ، وبأنه استكمل المعلومات التى بنى عليها « عيون الأنباء » حول سنة ٦٤٢ هـ (١٢٤٥ م) أى عندما كانت سن ابن النفيس لا تزيد على الخمس والثلاثين ، ولما كان محل اقامة ابن النفيس فى ذلك الوقت مجهولا ، يمكن الاستنتاج ، من ذكره ضمن أطباء الشام واغفال أى نبأ عن سفره الى مصر فى النبذة التى اكتشفها الدكتــور عيش ، أنه كان ما يزال قاطنا بالشام حين كتابتها ، وأنه لم يكن اذ ذاك قد حاز الشهرة التى تمتع بها فى النصف الثانى من حياته .

والغريب أن مايرهوف ـ وهو ممن ابتدعوا رواية الوقيعة بين ابن أبى أصيبعة وابن النفيس ـ عند اطلاعه على ترجمة ابن النفيس فى « مسالك الأبصار فى أخبار ملوك الأمصار »

حيث أسند جزء كبير من هذه الترجمة الى ابن أبى أصيبعة ، بدلا عن أن يتريث قبل ابتداع هذا التفسير الروائى ، لقد فضل أن يؤكد بأن اسم ابن أبى أصيبعة جاء خطأ فى ترجمة « مسالك الأبصار » بانيا هذا الفرض على عدم ورود أى ذكر لابن النفيس فى « عيون الأنباء » ، وهذا ما برهن الدكتور العيش على عدم صحته ، واليك النص الوارد فى « مسالك الأبصار » :

« ومنهم على أبى الحرم [1] ، وهو الامام الفاضل الحكيم العلامة علاء الدين بن النفيس القرشى [2] الدمشقى ، فرد الدهر وواحده ، وأخو كل علم ووالده ، امام الفضايل ، وتمام الأوايل ، والجبل الذى لا يرقى علاه بالسلالم ، والحبل الذى لا يعلق به الا الغريق السالم ، ولم يبق الا من اغترف غرفة بيده ، وأخذ منه حلية لمقلده ، حلّ بمصر فى محل ملكها ، ونسخت لياليها باشراقه صبغة حلكها ، وقرأ عليه بها الأعيان ، وكلا فضله وأعان ، ولم يكن على علم واحد بمقتصر ، ولا شبهه بالبحر الا مختصر ، هذا الى حسب غير مرعوس ، وحسب مثل جناح الطاووس ، .... قال ابن أبى أصيبعة نشأ بدمشق واشتغل بها فى الطب على مهذب الدخوار وكان الدخوار منجبا تخرج عليه جماعة منهم الرضى وابن قاضى بعلبك والشمس

---

(١) بالراء . على انه ورد بالزاى فى اغلب المصادر .

(٢) بفتح القاف لا بضمها ، وقد اخطأ الكثيرون قراءتها ، منهم ليكلير والتطاوى ذاته .

الكلى . وكان علاء الدين اماما فى علم الطب لا يضاهى فى ذلك ولا يدانى استحضارا واستنباطا ، واشتغل على كبر وله فيه التصانيف الفايقة ، والتواليف الرائعة ، صنف كتاب الشامل فى الطب تدل فهرسته على أنه يكون فى ثلاثمائة سفر ، هكذا ذكر بعض أصحابه . وبيض منها ثمانين سفرا وهى الآن وقف بالبيمارستان المنصورى بالقاهرة ، وكتاب المهذب فى الكحل وشرح القانون ... الخ » .

وقد اتفقت التراجم على بعض تفاصيل قد تعطى صوره عامة لحياته ، ولكنها أغفلت الكثير مما تهمنا معرفته ، واختلفت فى البعض القليل . ومن نقاط الاختلاف ضبط اسمه ، فقد ورد فى أفضل المخطوطات وأكثرها دقة (علاء الدين أبو العلا على ابن أبى الحزم القرشى الدمشقى المصرى) . الا أن بعض المخطوطات الأخرى ورد فيها (أبو الحسن) بدلا من (أبو العلا) ، وقد تشكك مايرهوف (٢٨) فى صحة هذه التسمية بحجة أن ابن النفيس لم ينجب أولادا (؟) .

كما أن اسمه ورد فى بعض المخطوطات الأخرى بالخاء بدلا عن الحاء (أبى الخزم) ، أو بالراء بدلا عن الزاى (أبى الحرم) (٣١) ، أو بالجيم بدلا عن الحاء (أبى الجرم) (٢٨) ، والجرم بالضمة ثم السكون وهو اسم قبيلة من قبائل العرب .

وقد جاء أيضا أن اسمه القرشى بفتح القاف نسبة الى القرش بفتح القاف ، قيل انها قرية بمصر وهذا يدعو الى التساؤل لأنه لا توجد فى مصر أية قرية تحمل هذا الاسم ،

ويقول ابن أبى أصيبعة ، فى مخطـوط المكتبة الظاهرية الذى سبق أن ذكرناه ، انها قرية قريبة من دمشق .

أما اذا قرأت القرشى بضم القاف وفتح الراء فانها نسبة الى قبيلة قريش أو الى احدى البلدان الكثيرة المسماة بالقرشية (فى الغربية) أو بميت قرشى (بالقرب من ميت غمر) فى مصر ، أو بالقرشية (بالقرب من حمص) فى الشام ، كما أن هنـاك قبيلة ضاربة بالقرب من أنطاكية تلقب ببنى القرشى وقد تكون من سلالة قريش . وقد قرأ لكلير القرشى بضم القاف وسكون الراء (٢٣) .

وانما عنينا بتصحيح اسمه للتثبت من مسقط رأسه ، الذى أغفل فى تراجمه . فهذه التراجم اكتفت بالقول بأنه نشـأ فى الشام أو فى دمشق قبل انتقاله الى مصر ، وقد اتفقت كلها على ذلك . كما أنه لم يرد ذكر لتاريخ مولده ، وان جاز لنا حساب هذا التاريخ على وجه التقريب ، اذ أنه توفى عن ثمانين سـنة وكان هذا فى سنة ٦٨٧ هـ (١٢٨٨ م) تبعا لحاجى خليفة ولنبذة من مخطوط رقم ١٠٢٢ من السجل العربى القديم بمكتبة باريس، وقيل سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) . واذن يكون مولده بين سنتى ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) و ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) ، وبمـا أن ابن اياس (٣٢) ، ذكره بين من توفوا من أعيان العلماء فى أيام الملك المنصور قلاوون المتوفى سنة ٦٨٨ هـ (١٢٩٠ م) فاننا نرجح لتاريخ وفاته سنة ٦٨٧ هـ (١٢٨٨ م) ولتاريخ مولده سنة ٦٠٧ هـ (١٢١١ م) . وقد أخذ الدكتور عبد الكريم شحادة

فى رسالته بالتاريخ الأخير (٣٣) دون توضيح كيفية وصوله اليه ، هل استنتجه بالحساب أم عثر عليه فى ترجمة من التراجم ؟

وكذلك نجهل تاريخ قدومه الى مصر . واذا فرضنا أنه رحل اليها مع ابن أبى أصيبعة فان هذا الحدث يكون قد وقع على الأرجح حول سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٦ م) وقبل سـنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٩ م) أو قل انه يزيد بقليل . اذ أن هذا الطبيب روى أنه قابل فى دمشق ضياء الدين بن البيطار وأن أول اجتماعه به كان فى سنة ٦٣٣ هـ (٣٤) ، وأنه قرأ فى مصر على الشيخ السديد بن أبى البيان الذى ولد سنة ٥٥٦ هـ (١١٦١ م) وعاش فوق الثمانين (٣٥) أى أنه توفى بعد سنة ٦٣٦ هـ ، وأنه اجتمع فى القاهرة بأفضل الدين الخونجى فى سنة ٦٣٢ هـ (٣٦) (١٢٣٥م) . وهذه الاعتبارات مبنية على فرضين يفتقر كلاهما الى البرهان ، أولهما أن الاثنين انتقلا الى القاهرة فى الوقت نفسه ، وثانيهما أن ابن أبى أصيبعة لم يعد الى دمشق فى خلال مدة عمله بمصر .

وكم كنا نود معرفة شيء عن والدى ابن النفيس أو سلالته : هل نشأ فى جو العلم والطب كالعديد من علماء زمانه ، أم ظهر فيه دخيلا فطعمه بعنصر حيوى جديد ، كتلك الأزهار الساحرة التى لا يتم جمالها الا بعد دخول عنصر غريب فيها ؟ !

ابن النفيس فى دمشق :

ولد ابن النفيس اذن حول سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) وكانت ولاية دمشق للسلطان العادل سيف الدين منذ سنة ٥٩٥ هـ

(١١٩٩ م) ، واذا قبلنا تاريخ ٦٣٢ أو ٦٣٣ هـ (١٢٣٦ م) لمغادرته الشام كما أسلفنا ، فيكون السلطان الذى استدعاه الى مصر هو الكامل محمد (٦١٤ هـ/١٢١٨ م ــ٦٣٥ هـ/١٢٣٨م).

وكانت دمشق قد ورثت مجد بغداد الطبى ، وازدهر فيها العلم بفضل حكامها الأيوبيين الذين كانوا يعيرون العلم عامة والطب خاصة اهتماما كبيرا ، حتى انهم جعلوا من عاصمتهم مركزا هاما للعلوم والفنون وحققوا فيها نهضة تعد النهضــة الثانية فى حضارة العرب ، ولقــد ظلت دمشق واحة هادئة ، وسط عالم ساده الاضطراب ، تحفظ فلول العلم والعلماء فى الشرق . وكان من مظاهر هذه النهضة المكتبة التى أنشأها نور الدين محمد بن زنكى واستودعها عديدا من نفائس الكتب ، والبيمارستان [1] الذى اجتذب أمهر أطباء عصره ، وكانوا قد لجأوا الى دمشق من بغــداد ، وأغلبهم من تلاميــذ الطبيب النصرانى الشهير أمين الدولة بن التلميذ البغدادى الأصل الذى توفى فى بغداد سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) ، وقد حمل هؤلاء معهم نسخا من أشهر المؤلفات ، كقانون ابن سينا الذى دأب على دراسته والتعليق عليه جهــابذة من أمثال فخر الدين المردينى ــ وابن النقاش ــ وابن المطران ــ ورضى الدين الرحبى الذى

---

(١) بيمارستان : مشتقة من لفظتين فارسيتين (بيمار = مريض) و (ستان = محل أو دار) ومعناها مستشفى . الا أن اقتصار البيمارستان الناصرى فى أواخر أيامه على علاج مرضى العقل أدى الى قصر هذه التسمية على مستشفيات الأمراض العقلية .

توفى حول سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٣ م) عما يقرب من مائة سنة من العمر .

ومن أشهر تلاميذ هذين الأخيرين مهذب الدين عبد الرحيم على ، المسمى بالدخوار ، الذى توفى فى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م ، والذى عنى ــ فى بدء حياته العملية ــ بأمراض العيون فى البيمارستان النورى بدمشق ، ثم عينه السلطان سيف الدين ، أخو صلاح الدين الأيوبى وخليفته ، رئيسا لأطباء سورية ومصر حول سنة ٦٠٧ هـ/١٢١٠م . ولقد كان الدخوار أستاذ ابن النفيس وابن أبى أصيبعة ، وقد أفرد له أبو الفضل العمرى فى « مسالك الأبصار فى أخبار ملوك الأمصار » (٣٧) فصلا مستفيضا نجتزىء منه ما يلى :

« ... كان فى الحكماء علما ، وفى أثبات الحكم قلما ... وكان لفروع الطب شجرة يكاد زيتها يضىء ... وكأنه جالس أرسطاطاليس » ، وقال عنه ابن أبى أصيبعة (٣٨) : « كان رحمه الله أوحد عصره ، وفريد دهره ، وعلامة زمانة ، واليه انتهت صناعة الطب ومعرفتها على ما ينبغى عليه وتحقيق كلياتها وجزئياتها ... فاق أهل زمانه فى صناعة الطب وحظى عند الملوك ونال من جهتهم من المال والجاه ما لم ينله غيره من الأطباء . . وولاه السلطان الكبير رئاسة أطباء ديار مصر بأسرها وأطباء الشام ... وفوض اليه النظر فى أمر الكحالين واختيارهم » .

وقد أوصى الدخوار بأن يحول بيته ومكتبته ــ بعد مماته ــ الى مدرسة للطب ، وتم ذلك فعلا ، فأنشئت المدرسة التى

لقبت بالدخوارية . وقد ظلت هذه المدرسة تعمل زمنا طويلا ، وقام بالتدريس فيها طائفة من مشاهير الأطباء ، وقد تولى أمرها زمنا ما بدر الدين المظفـــر بن قاضي بعلبك الذى أعاد بنـــاء البيمارستان النورى مع التوسع وزوده بالماء الجارى سنة ٦٣٧هـ (١٢٣٩ م) (٣٩) .

ومن غير هؤلاء تتلمذ ابن النفيس فى دمشق على عمران الاسرائيلى ، الذى قال عنه ابن أبى أصيبعة (٤٠) أنه ولد فى دمشق سنة (٥٦١ هـ/١١٦٥ م) وكان أبوه طبيبا ذائع الشهرة ، ودرس صناعة الطب على الشيخ رضى الدين الرحبى وحظى عند الملوك ونال من آلائهم ما يفوق الوصف . وجمع من الكتب الطبية الفريدة ما لم يكد يتوفر عليه أحد غيره ، ولكنه لم يعمل فى معيّة ملك من الملوك أو يصاحبه فى السفر . فلقد حرص الملك العادل أبو بكر بن أيوب على أن يستصحبه فأبى ، وكذلك حاول ملوك آخر ، كالملك الناصر بن الملك المعظم ، وكان اذ ذاك صاحب الكرك . فان هذا الملك عندما مرض استقدم عمران من دمشق فأقام لديه وظل يعالجه حتى صلحت حاله ، فأجازه ورتب جامكية [1] شهرية قدرها ألف وخمسمائة درهم ناصرية ، ثم طلب اليه أن يبقى فى خدمته فأبى .

وكان عمران يتردد على البيمارســتان الكبير ويعــالج به المرضى . وكان ، فى هذا ، يزامل الدخـــوار . وكان ابن أبى

---

(١) جامكية = مرتب .

أصيبعة وابن النفيس يتدربان معهما فيه على الطب . ويضيف ، ابن أبى أصيبعة أنه « قد رأى من حسن تأتى الحكيم عمران المعالجة وتحقيق الأمراض ما يتعجب منه — وقد عالج أمراضا كثيرة مزمنة كان أصحابها قد سئموا الحياة ، ويئس الأطباء من برئهم فبرئوا على يديه بأدوية غريبة يصفها ، أو معالجات بديعة يعرفها » . وتوفى عمران فى حمص سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م) وكان صاحبها قد استدعاه لمداواته .

هؤلاء هم أساتذة ابن النفيس فى دمشق . وكانت طريقة تعليم الطب تمتاز بالتدقيق فى تفحص المرضى ومتابعة مظاهر المرض فى تطورها واستجابتها للعلاج ، وبالمباحثة مع الزملاء والطلبة دون قيد أو حرج ، وتلك هى الطريقة « الأكلينيكية » الصحيحة التى لم يأخذ بها الغرب الا مؤخرا فى عهد سيدنهام [1] فى لندن ، وبورهاف [2] فى ليدن (هولاندا) . ولنذكر على سبيل المثال ما قاله ابن أبى أصيبعة (٤١) — ولا معدى عن تكرار اقتباس ما كتبه ، المرة بعد المرة ، ونحن فى صدد تاريخ الطب الاسلامى — قال : « ان أبا المجد بن أبى الحكم كان يدور على المرضى به (أى بالبيمارستان) ويتفقد أحوالهم وبين يديه المشرفون والقوام لخدمة المرضى فكان جميع ما يكتبه لكل مريض من المداواة

---

(١) توماس سيدنهام (١٦٢٤ — ١٦٨٩) : طبيب انجليزى سمى أبقراط أوروبا وأعاد الى الطب أهمية التفحص الاكلينيكى ووصف أمراضا عديدة .

(٢) هرمان بورهاف (١٦٦٨ — ١٧٣٨) طبيب هولاندى ، اشتهر وعالج الملوك والباباوات ، ولم يغادر بلدته قط . ويروى ان خطابا معنونا : السيد/ بورهاف بأوروبا وصله سليما .

والتدبير لا يؤخر عنه ولا يتوانى فى ذلك ... وكان بعد فراغه من ذلك وطلوعه الى القلعة وافتقاده المرضى من أعيان الدولة يأتى ويجلس فى الأيوان الكبير للبيمارستان ، وجميعه مفروش ، ويحضر كتب الاشتغال . وكان نور الدين رحمه الله قد وقف على هذا البيمارستان جملة كبيرة من الكتب الطبية ، وكانت فى الخورستانين [1] اللذين فى صدر الأيوان . فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون اليه ويقعدون بين يديه ثم تجرى مباحث طبية ويقرىء التلاميذ ، ولا يزال معهم فى اشتغال ومباحثة ونظر فى الكتب مقدار ثلاث ساعات ثم يركب الى داره » .

ما أشبه هذه الطريقة بما يتبع حاليا فى أحدث كليات الطب ، وما أبعدها مما كان متبعا فى الغرب فى ذلك الوقت ، اذ اقتصر التعليم على مجرد استذكار النصوص والتعليق عليها !

نشأ ابن النفيس فى هذا الجو العلمى الصحيح المبنى على الخبرة والأصالة فى التفكير ، والمناقشة غير المقيدة ، قبل أن يرسله من كان بيدهم زمام الحكم من الأيوبيين الى مصر مع طائفة من زملائه ، نعرف منهم عبد اللطيف المهندس ، ويوسف السبتى وابن أبى أصيبعة .

---

(1) الخورستان : المدخل .

الباب الرابع

ابن النفيس فى مصر

لم يكن شأن الطب فى مصر ، عندما وطىء ابن النفيس أديم هذه الأرض العريقة ، أقل منه فى سائر البلاد العربية ، بل انه كان فى صدر الاسلام متفوقا عليه فى بغداد . وقد استقى العرب فى أول عهدهم بالطب من منهله الشىء الكبير . فلقد قام بأول ترجمة فى عهد بنى أمية فلاسفة من الاغريق المقيمين بمصر كان قد استدعاهم خالد بن يزيد بن معاوية ، وكان مولعا بالطب . ومن أمثال هؤلاء اصطفان الاسكندرى الذى ترجم له كتابا فى الكيمياء . وكان أطباء مصر يفضلون أطباء بغداد حتى فى عهد الرشيد . وهذا ما يفهم من رواية نقلها ابن أبى أصيبعة عن سعيد بن البطريق فحواها أن عبيد الله ، والى مصر ، كان قد أهدى الرشيد جارية حسناء أحبها الخليفة حبا جما ، فلما مرضت الجارية وتعذر شفاؤها على يد أطباء بغداد أشاروا على الرشيد بأن يبعث الى عبيد الله ليوجه اليه أحد أطباء مصر فهم أبصر بعلاج هذه الجارية من أطباء العراق . فبعث الرشيد الى عبيدالله ليختار له أحذق أطباء مصر . فدعا عبيد الله بليطيان بطريرك المذهب الملكى بالاسكندرية ، وكان يحذق الطب ، وأعلمه بعلة

الجارية وحب الرشيد لها ، وحمله الى الرشيد ، وشفيت الجارية على يد بليطيان (٤٢) .

نعم ان الطب كان ما يزال متعثرا فى ذاك الوقت ، ولكن تقدمه ، فيما بعد ، كان متماثلا فى البلاد العربية كافة ، بفضل انتشار الاسلام الذى سوّى بين ثقافتها جميعا ، والذى فصل العلم عن الدين ، وأزال الحدود بين البلاد ، وأتاح التنقل بين ربوعها وديارها ، وفتح خزائن العلم لكل من سعى اليه . ولهذا لم يكن للطب الاسلامى جنسية ولا دين ولا مقـر ينفرد به .

وقد أشار ابن أبى أصيبعة الى ستين طبيبا نشأوا فى مصر أو عملوا فيها (٤٣) أو تعلموا فى ديارها بين سـنة ١٨٠ وسنة ٦٤٠ هـ ، ولعل أفضلهم فى نظره اثنان ، اذ روى عن جمال الدين يحيى بن مطروح ، حين كان وزير الملك الصالح نجم الدين أيوب : قال لى وهو بداره بدمشق : « ما سبقك الى تأليف مثل كتابك فى طبقات الأطباء أحد » ثم قال : « وذكرت أصحابنا المصريين ؟ فقلت له نعم . فقال : وكأنى بك قد أشرت الى أن ما فى الأطباء المتقدمين منهم مثل ابن رضوان ، وفى المتأخرين مثل ابن جميع ، فقلت له صحيح يا مولانا » (٤٤) .

ومن الأطباء الأخر ابراهيم بن عيسى الذى صاحب يوحنا بن ماسويه فى بغداد وتوفى فى الفسطاط حول سنة ٢٦٠هـ (٨٧٣م)، والحسن بن زيرك طبيب ابن طولون الذى شفاه من هيضة لم يفلح فى علاجها سعيد بن توفيل الذى مات من ضرب السياط عملا بأمر ابن طولون ، وموسى بن عازار الاسرائيلى طبيب المعز

لدين الله ، وعلى بن رضوان المولود بالجيزة والذى اشتهر بتطاوله على حنين بن اسحق وعلى الرازى وعلى كل من ناقشه .

ومما يؤكد اهتمام الولاة بمصر بأمور العلم أن أفرائيم بن زفان الاسرائيلى ، بعد أن جمع من الكتب ما يربى على العشرين ألف مجلد ، أراد أن يبيع عشرة آلاف منها الى عراقى فأبى عليه الوالى الأفضل ابن أمير الجيوش اخراجها واشتراها لنفسه لقاء الثمن الذى سبق الاتفاق عليه .

ومن عباقرة الأطباء كذلك أبو الخير سلامة بن رحمون الذى هجاه طبيب أنطاكى اسمه جرجس بقوله :

ثلاثة تدخل فى رقعة

طلعته والنعش والغاسل

والشيخ السديد الذى خدم آخر أربعة من الخلفاء الفاطميين وصلاح الدين الأيوبى والذى احترقت داره بالقرب من باب زويلة فى سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) ، وأبو عمران موسى بن ميمون القرطبى الذى ما يزال المرضى يؤمون مقامه بالقاهرة ابتغاء الشفاء الى اليوم ، ورشيد الدين بن أبى حليقة (نسبة الى حلق من الفضة ألبسه اياه فى اذنه والداه عند ولادته ليمنع عنه الموت الذى فتك بمن سبقه من الأولاد) ، وكان رشيد الدين ماهرا فى صناعة الترياق الفاروق ، ومنهم ضياء الدين البيطار الذى عمل رئيسا للعشابين فى مصر وتوفى فى دمشق سنة ٦٤٦ هـ . وهو الذى ألف فى الأدوية وكانت كتاباته أساس المادة الطبية الحديثة .

ولم يتخلّف بناء المستشفيات ، فان كان أول بيمارستان بنى فى الشرق هو بيمارستان القيصرية الذى شيده الملك البيزنطى باسليوس الأكبر فى سنة ٤٧٠ م أى قبل الهجرة بقرن ونيف ، فان ابن دقماق (٤٥) قد روى أنه كان فى عهد بنى أمية بيمارستان فى حارة القناديل بفسطاط القاهرة (وقد سميت بهذا الاسم نسبة الى قنديل كان يشعل على باب عمرو بن العاص) ، وأشار المقريزى (٤٦) الى بيمارستان فى حى المعافر شيّد فى عهد المتوكل على الله (الذى توفى سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م) . وفى سنة ٢٥٩ هـ / ٨٧٢ م أنشأ ابن طولون ـ فى الفسطاط ، بالقرب من مسجده فى حى العسكر ـ بيمارستانا أطلق عليه اسم «الأعلى» ، وأنفق عليه ستين ألف دينار وجمع فيه ما يزيد على مائة ألف مجلد ، وقصر خدمته على المدنيين ، وحرم علاج الجنود والمماليك فيه . وكان هذا البيمارستان ما يزال قائما عندما زار القلقشندى (المتوفى فى سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) القاهرة . وبعد ابن طولون نرى كافور الأخشيدى يبنى البيمارستان الأسفل (٤٧) ، وقد شيدت كذلك بيمارستانات أخرى ، أشهرها البيمارستان الناصرى والبيمارستان المنصورى .

فقد أسس الناصر صلاح الدين فى هذه العاصمة بيمارستانا سمّى بالناصرى نسبة اليه ، أو بالعتيق ، ومما رواه القلقشندى أن الملك صلاح الدين عندما فتح مصر واستولى على قصر الفاطميين ، وجد قاعة كان بناها الخليفة الفاطمى العزيز بالله ابن المعز (٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م) . وعندما قيل له ان بها

طلسما يحميها من تسلل النمل اليها ، اختارها لتكون بيمارستانا . وقد اندثر هذا البيمارستان وأصبح أثراً بعد عين ، وقال على باشا مبارك انه كان موجودا حيث يقع الآن منزل الغمرى الحصرى وان بابه يفتح على حارة الملوخية التى كانت تسمى قبل ذلك بحارة قائد القواد (٤٨و٤٩).

وعندما تولى الملك المنصور سيف الدين قلاوون الحكم ، نزع ملكية قطعة أرض بين القصرين الفاطميين ، وكانت شغلتها فى أول الأمر الأميرة ست الملك (أخت الحاكم بأمر الله ثالث خلفاء الفاطميين) ، وأقيمت عليها فيما بعد ، أبان سقوط الفاطميين ، قاعة سميت بيت المسك ، ثم بالدار القطبية نسبة للملك الأيوبى المفضل قطب الدين أحمد (نجل الملك العادل أبى بكر بن أيوب) الذى امتلكها فيما بعد . وقد نزع قلاوون الملكية من السيدة عصمة الدين خاتون القطبية وعوضها عنها قصر الزمرد القائم على رحبة باب العيد .

بنى المنصور قلاوون فى هذه القاعة مكتب الأيتام وبيمارستانا أطلق عليه اسم البيمارستان المنصورى أو الجديد . ولقد بدىء فى العمل فى هذا البيمارستان فى أول ربيع الثانى سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) ، وتم انشاؤه بعد هذا بثمانية أشهر ، وما تزال آثار هذا البيمارستان تشاهد بالقاهرة فى مستشفى قلاوون للرمد . وقد أعجب به أبو العباس القلقشندى عند زيارته القاهرة وأشاد بنظامه وبما كان يحظى به المرضى من العلاج ومن العناية الفائقة دون أجر .

وقد زعم البعض أن ابن النفيس عمل بهـذا البيمارستان لا بالبيمارستان الناصرى . واذا تأملنا فى تاريخ هذا المستشفى وجدنا أن بناءه تم فى سنة ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م ، ولذا فانه يجوز الشك فى صحة الزعم بأن ابن النفيس عمل فى هذا المستشفى ، اذ توفى فى سنة ٦٨٧ هـ أو حسب زعم آخر فى سنة ٦٩٦ هـ ، أى ثلاث سنوات بعد الانتهاء من بنائه عندما كانت سنه قد تجاوزت السبعين . الا أنه من الجائز أن يكون قد عمل بالمستشفى العتيق أى الناصرى فترة من حياته الى أن أنشأ قلاوون البيمارستان المنصورى ، فرأى السلطان أن يسند ادارته الى هذا النطاسى الكبير ليفيد من سمعته الطبية وتوجيهه الفنى المستنير . وربما يفسر ذلك سر اهداء ابن النفيس مكتبته لهذا المستشفى الناشىء الذى لم يكن قد تيسر له بعد تكوين مكتبة مناسبة .

ولنتصور ابن النفيس فى القاهرة ، وأهل الحى يشيرون بهيبة واحترام الى شيخ نحيف طويل القامة أسيل الخدين تنم مشيته وسيماؤه على دماثة الخلق وآداب المعاملة ، وهو يتجول فى الحوارى بين منزله وبين البيمارستان بجوار قصر الفاطميين أو فى المدرسة المسرورية حيث كان يدرّس الفقه . وكانت القاهرة اذ ذاك غاية فى الجمال بما شيّده حكامها من الفاطميين والأيوبيين وأوائل المماليك البحرية . الا أن رقعتها كانت أضيق بكثير من رقعتها اليوم . كان نهر النيل يحدها غربا ، وكان مجراه حتى سنة ٦٨٨ هـ وهى سنة وفاة ابن النفيس يمر

من فم الخليج الى شارع سعد الدين فشارع نوبار الى أن يلتقى هذا الشارع بشارع الشيخ ريحان . ثم ينعطف شرقا الى شارع عماد الدين حيث كانت تنتهى حدود القاهرة عند قرية أم دنين وكانت تقع عند موقع جامع أولاد عنان .

وكان ثغر النيــل فى ميدان (رمسيس) محاطا بالمصــانع والترسانات التى بنيت فيها أساطيل المعز لدين الله وصلاح الدين الأيوبى التى قضى بها على أساطيل الصليبيين . وكان النهر يمر بعد ذلك بمحطة كوبرى الليمون الحالية ثم بالشرابية ومنيــة السيرج الى مبدأ ترعة الاسماعيلية .

نشأت شبرا على شكل جزيرة تراكمت حول مركب غرقت فى الثغر فى عهد الدولة الفاطمية ، وكان اسمها الفيل ، فسميت جزيرة الفيل وهى التى أطلق عليها اسم جزيرة بدران فى عهد الأتراك ، وزرعت فيها البساتين ، وتردد عليها الأمراء والمماليك للتنزه فى روضــتها وللممارســة الرماية وغــيرها من أنواع الرياضة ، وربمــا كان ابن النفيس يبتغى فيها الخلوة أحيــانا للاستجمام أو للتأمل فيما كان يشغل باله من المسائل العلمية .

أما بولاق فقد نشأت فى عهده ثم امتدت فيما بعد حتى بركة الفيل . وبالطريقة نفســها ظهرت أرض اللوق فى عهــد الفاطميين والأيوبيين نتيجة لطرح البحر ، واسمها معناه الأرض اللينة ، اذ يقال لاق الشيء أى ليّنه . ولعــله كان يمر للنزهة بساحل على الخليج استعمله السقاءون حتى عهد الملك الصالح نجم الدين الأيوبى ، وكان يسمى باب « الخرق » الذى حرف

الى باب « الخلق » ، والخرق هى الأرض التى تخترقها الرياح . وكان الموسكى فى ذلك العهد قنطرة على الخليج أنشأها الأمير عز الدين موسك فى سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٩ م) فى عهد صلاح الدين ، كما قام حى السيدة زينب حول جسر شـيده الظاهر بيبرس على الخليج وعرف بقناطر السباع ، نسـبة الى رنك بيبرس الذى كان يمثل سبعاً . وكان بجوار البيمارستان حى الحسينية الذى أنشأه جماعة من الأشراف قدموا من الحجاز وبنوا المدابغ وصنعوا الأديم المسمى بالطائفى نسبة الى الطائف بالحجـاز .

وكانت القاهرة دائبة النشاط فى التوسع والبناء منذ عهد الفاطميين وبعدهم فى عهد صلاح الدين ، الذى بنى قلعة الجبل ، وسور القاهرة الممتد منهـا الى أثر النبى ، وأنشـأ المدارس المذهبية التى حاول بها مناهضة المذهب الشـيعى الذى كان سائدا فى مصر فى العصر الفاطمى . ومن العمائر الأيوبية التى لا مرية فى أن ابن النفيس كان يتردد عليها : قبة الامام الشافعى ــ وكان ينتمى الى مذهبه ــ تلك القبـة التى أدخلت أسسا جديدة فى زخرفة العمارة الاسلامية (٤٨ و ٤٩ و ٥٠) .

وقد شاهد ابن النفيس تشييد عمائر المماليك المروعة فان عهـدهم ــ مع ما اتسم به من التعسـف والاستبداد والظلم والدسائس ــ يضـاهى بذروة النهضة الأوروبية فى القـرن السادس عشر ، وذلك لما ناله الفن والعلم من العناية فى ذلك العصر ، ففيـه ارتفعت المآذن الحسنة الزخرفة على مسـاجد

قلاون وبيبرس ، وازدحمت واجهاتها بالطنف والتيجان وضروب الزخرفة الهندسية . وفيه كثرت القباب الكبيرة والصغيرة فوق المحارب والمداخل . وبدىء فى استعمال حجر من لونين (الأبلق) فى البناء ، وطليت الأسقف بماء الذهب ، وبنيت المرافق العامة النافعة كمجرى المياه المرتفع الذى يوصل الماء من فم الخليج الى القلعة .

وحسبنا فى الاشارة الى نشاط المماليك المعمارى أن نقتبس من ابن اياس (٣٢) ، قال عن الملك الظاهر بيبرس : « ان ما أنشأه فى القاهرة مدرسة بين القصرين وانه عمر الجامع الكبير خارج الحسينية وكان فيه مساحة يلعب فيها المماليك لعبة القبق [1] وجدد جامع الأزهر وأعاد فيه الخطبة وأنشأ ضيعة على فم وادى العباسية وسماها الظاهرية .. » . هذا بالاضافة الى الأسوار والقناطر والقلاع والقصور التى اهتم بانشائها ، والبحار التى عنى بحفرها خارج القاهرة فى مصر والشام .

ولم يكن تقدم الحياة الاجتماعية والسياسية أقل نشاطا . فقد شاهد ابن النفيس الجيوش تعد للسفر أو تعود منه ، وحضر الدسائس والقتل والتعذيب بين المماليك ، وعاصر الحروب الصليبية ونزول الفرنجة فى دمياط وصدّهم فى

---

(١) القبق لفظة تركية معناها القرعة ، ولعبة القبق لعبة تتلخص فى أن توضع حمامة فى داخل قفص مذهب على شكل القرعة فى أعلى عمود مرتفع ، ويحاول الفرسان اصابة القفص وهم راكضون على خيلهم ، فاذا اخترق السهم القفص ، فرت الحمامة وكوفىء الرامى بالقفص المذهب .

فارسكور واعتقال لويس التاسع فى المنصـــورة ، ورد هجوم ملك النوبة على أســـوان فى سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥ م) وكسر التتار فى حلب ، وفتح تلك المدينة فى سنة ٦٧٦ هـ (١٢٧٧ م) ، وشاهد الصفحات المتخبطة المتلطخة بالدماء التى كتبتها شجرة الدر وبيبرس وغيرهما .

ومن الحوادث ذات الأهمية القصوى التى عاصرها : هجوم هولاكو على بغداد وهدمها فى سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) والوباء الذى نشأ فى مصر فى سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٢ م) وفتك فى ديارها نحو ستة أشهر انفض فى خلالها ــ حسب قول ابن اياس (٣٢) ــ « على ما لا يحصى من الخلائق من نساء ورجال وأطفال وعبيد وجوار » . ولا شك لدينا فى أنه آل الى ابن النفيس ــ بحكم ما كان قد سما اليه من المكانة المرموقة بين زملائه وعند الحكام ــ أن يتولى نصيب الأسد فى مكافحته .

وقد عاش مطيعا لربه أمينا لدينه ، وفتحت له كنوز الدنيا كما أتيحت له أبواب العلم . فقد روى بعضهم قال : « كان قد ابتنى دارا بالقاهرة وفرشها بالرخام حتى ايوانها ، وما رأيت ايوانا مرخما فى غير هذه الدار » . وكان كثير الاجتماع بأهل العلم والطب فى داره التى كان يتردد عليها الأمراء والأعيان من أمثال المهذب بن أبى خليقة رئيس الأطباء ، ويجلس الناس فيها حسب طبقاتهم . وقد أخبرنا السديد الدمياطى الحكيم بالقاهرة ، وكان من تلاميذه قال : « اجتمع ليلة هو وابن واصل وأنا نائم عندهما فلما فرغا من صلاة العشـــاء الآخرة شرعا فى البحث

وانتقلا من علم الى علم والشيخ علاء الدين يبحث برياضة وبلا انزعاج . وأما القاضى فانه ينزعج ويعلو صوته وتحمر عينه وتنتفخ عروق رقبته ، ولم يزالا كذلك الى أن أسفر الصبح . فلما انفصل الحال قال القاضى جمال الدين : « ياشيخ علاء الدين أما نحن فعندنا مسايل ونكت وقواعد ، وأما أنت فعندك خزائن علوم » .

ولا شك فى أن من الظروف التى ساعدت على تركيزه فى الدراسة وعلى وفرة انتاجه أنه لم يتزوج . ويشتم مما قيل عن انشغاله بالتفكير عما يحيط به ، أنه كان كثير السهو وأن قريحة التأليف كانت تتسلط عليه أحيانا بقوة لا يستطيع الافلات منها فتحفزه الى رمى ما فى يده وحصر فكره فى الكتابة ، متأثراً بنوع من الوحى حتى فى أغرب الأماكن ، شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من العلماء والفنيين . وقد روى أيضا أنه : « اذا أراد التصنيف توضع له الأقلام مبرية ويدير وجهه الى الحائط ويأخذ فى التصنيف املاء من خاطره ، ويكتب مثل السيل اذا انحدر ، فاذا كلَّ القلم وحفى رمى به وتناول غيره لئلا يضيع عليه الزمان فى برى القلم » . وروى آخر : « دخل الشيخ علاء الدين مرة الى الحمام التى فى باب الزهومة فلما كان بعض تغسيله خرج الى مسلخ الحمام واستدعى بدواة وقلم وورق وأخذ بتصنيف مقالة فى النبض الى أن أنهاها ثم عاد ودخل الحمام وكمل تغسيله » .

وقد مرض ابن النفيس ستة أيام أولها يوم أحد ، وغادر

الدنيا فى سحر يوم الجمعة الحادى والعشرين من ذى القعدة سنة سبع وثمانين وستمائة بالقاهرة . وحكى أنه فى علته التى توفى بها أشار عليه بعض أصحابه من الأطباء بتناول شىء من الخمر — وكان صالحا لابراء علته فيما زعموا — فأبى أن يتناول شيئا منه وقال : « لا ألقى الله تعالى وفى باطنى شىء من الخمر ».

ولقد كان لوفاته أثر بليغ فى قلوب معاصريه . ذكره ابن اياس بين من توفوا من أعيان العلم فى عهد قلاوون (٣٢) ، وقال الصفدى فى « الوافى بالوفيات » (٥١) : أنشدنى الصفى أبو الفتح بن يوحنا بن صليب بن مرجى بن موهوب النصرانى لنفسه يرثى علاء الدين بن النفيس :

ومسائل هل عالم أو فاضل
أو ذو محل فى العلى بعد العلا
فأجبت والنيران تضرم فى الحشى
أقصر فمذ مات العلا مات العلى

الباب الخامس

حياة ابن النفيس العملية

ابن النفيس الطبيب :

اختلف معاصرو ابن النفيس فى درجة نطسه ومهارته فى ممارسة مهنته وان ذاع صيته وربا المال الذى خلفه . وهذا الخلاف لا يحط من قدره فى نظرنا . ذلك أن اعجاب المرضى بالطبيب قد يرد الى أسباب لا صلة لها بعلمه . والحقيقة أن ما وصلنا عن تطبيقه قليل ، وأن الانتقادين اللذين وجها اليه من شأنهما — على العكس — أن يرفعا من قدره فى نظرنا ، فهذان الانتقادان ينمان عن أمانته العلمية الكاملة فى معاملاته المرضى وعن معرفته الحقة بامكانيات العلاج بالعقاقير وحدوده . فلقد جاء فى « مسالك الأبصار » (٣١) بالحرف الواحد : « حدثنى غير واحد منهم شيخنا أبو الفتح اليعمرى قال : كان ابن النفيس على وفور علمه بالطب واتقانه لفروعه وأصوله قليل البصر بالعلاج فاذا وصف لا يخرج بأحد عن مألوفه ولا يصف دواء ما أمكنه أن يصف غذاء ولا مركبا ما أمكنه الاستغناء بمفرد ، وكان ربما وصف القمحية [1] لمن شكا القرحة ، والتطماج [2] لمن شكا هواء ،

---

(١) نوع من « البليلة » .

(٢) التطماج نوع من اللحم المطهو بالتوابل .

والخروب والقضامة لمن شكا اسهالا ومن هذا ومثله ولكل ما يلائم مأكله ويشاكلها حتى قال له العطار الشرابى الذى كان يجلس عنده : « اذا أردت أنك تصف مثل هـذه الوصفات اقعد على دكان اللحام ، وأما اذا قعدت عندى فلا تصف الا السكر والشراب والأدوية » . لا عجب فى أن يجلس الطبيب عند العطار ، فانها عادة اعتادها أطباء الشرق الى زمان قريب حين كان يقابل الطبيب مرضاه عند الصيدلى ، ولكننا تتعجب من ألا يصـف ما يروق فى نظر مستضيفه وما يجلب عليـه الكسب ، بل يعترف بقِصر بضاعته .

ومن هذا أيضا : « حكى لى شيخنا أبو الثناء الحلبى الكاتب قال : شكوت الى ابن النفيس عقالا [1] فى يدى فقال لى : وأنا والله بى عقال ، فقلت له : فبأى شىء أداويه ؟ فقـال : والله ما أعرف بأى شىء أداويه . ثم لم يزدنى على هـذا » (٣١) . وينبغى لنا أن نعترف بأن مثل هذه الأمانة ومثل هذا الصدق نادران بين أطباء كل الأجيال فى كل بلاد العالم .

ابن النفيس العالم المؤلف :

كان ابن النفيس كثير التأليف سريعه ، كما أسلفنا ، وكان ــ حسبما ذكر الشيخ أبو الثناء محمود ــ « يكتب اذا صنف من صدره من غير مراجعة حال التصنيف » (٣١) . وكان على ثقة اليقين بما يقوله ، فقد روى أنه قال : « لو لم أعـلم أن

(١) العقال : عقدة أو ورم حميد .

تصانيفى تبقى مدة عشرة آلاف سنة ما وضعتها » (٣١) . وكان ملما بكل ما كتب قبله وموهوبا بقوة نقـدية نادرة فى ذلك الوقت ، فقد اشتهر بانتقاده لجالينوس الذى لم يجرؤ على نقضه الا قلة من العلماء . وهذا ما أشير اليه فى عدة تراجم ، فلقد جاء فى «مسالك الأبصار» مثلا أنه كان يغض من كلام جالينوس ويصفه بالعىّ والاسهاب الذى ليس تحته طائل . وأكدت لنـا شدة كرهه لجالينوس نبـذة جاءت فى مخطوط موجود بدار الكتب بالقاهرة [1] ، وبالعكس فانه كان يعظم كلام أبقراط ، وقيـل : « انه شرح كتبه كلها وان لأكثرها شرحين ، مطولا ومختصرا » ، وكان يجل ابن سينا « ويحفظ كليات القانون ولا يشير على مشتغل بغير القانون » ، وهو الذى جسر الناس على هذا الكتاب » (٣١) ، ومعنى هذا أنه بدأبه فى دراسة كتب ابن سينا وبكثرة تصنيف الشروح لها تمكن من تبسيط ما جاء بها ووضـعها فى متناول الطالب المتوسـط . وهو لم يكتف بمؤلفات ابن سينا فى الطب ، بل اختصر له أيضا ، حسب الشيخ أبو الثناء محمود ، كتاب « شرح الهداية » فى المنطق (٣١) ، وقد اعترف له معاصروه بهذه المقدرة فلقد قال أبو الصفاء : « قال السديد : قلت له يا سيدى لو شرحت الشفاء [2] لابن سيناء كان

(١) مخطوط تاريخ ١١١٢ (الجزء الثانى ص ٣٨٢) ذكره مايرهوف (٢٨) .

(٢) يقصد كتاب الشفاء لابن سينا ، وهو أهم مؤلفات هذا الطبيب الفيلسوف ، وقد شمل المنطق والطبيعة والفلك والحساب والعلوم الالهية ، وهو من الكتب العسيرة القراءة والفهم ، وقد كتبت له شروح كثيرة .

خيرا من شرح القانون لضرورة الناس الى ذلك . «قال : الشفا على فيه مواضع . قلت انه يريد أنه ما فهم تلك المواضع لأن عبارة الرئيس (أى ابن سينا) فى الشفاء غلقة » ، وقد وضع شرحا للقانون فى عشرين مجلدا شرحا « حل فيه المواضع الحكمية ورتب فيه القياسات المنطقية وبيّن فيه الاشكالات الطبية ولم يسبق الى هذا الشرح لأن قصارى كل من شرحه أن يقتصر على الكليـات الى نبض الحبالى ولا يجرى فيـه ذكر الطب الا نادرا » (٣١) . ولعل شغفه بدراسة كتابات ابن سينا وبتفسيرها هو سبب نعته بابن سينا الثانى .

وكان كريما بمعلوماته وأوصى بوقف داره ، وما جمعه من الكتب ، للبيمارستان المنصـورى ، وقد يكون اسـتعداده لمشاركة تلاميذه فى معلوماته السبب فى أنه قيل عنه انه : « الحبل الذى لا يعلق به الا الغريق السالم ، لم يبق الا من اغترف منه غرفة بيده وأخذ منه حلية لمقلده » . كما قيل انه « كان لايحجب نفسه عن الافادة ليلا ولا نهارا » (٣١) .

ومن المؤسف حقا أنه لم يبق من سيل كتاباته الا النزر اليسير ، ولعل سبب قلة ما وصل الينا منها أنها كانت ــ بسبب كبر أحجامها ــ مما يصعب استنساخه ، وربما كشف المنقبون فى خزائن الكتب فى المستقبل عن شىء مما ضاع منها كشرح الاشارات أو المقالة فى النبض أو شروح كتب أبقراط غير التى وصلتنا .

على أننا نعرف منها الآتى :ــ

١ ــ كتاب الشامل فى الطب : قال العمرى ان فهرسته تدل « على أنه يكون فى ثلاثمائة سفر ، هكذا ذكر بعض أصحابه ، وبيّض منهــا ثمانين ســفرا . وهى الآن وقف بالبيمارستان المنصورى بالقاهرة » .

ويرجح أن ابن النفيس قصد بهذا المؤلف الضخم تجميع كل ما وصل اليه الطب فى زمانه فى موسوعة تضاهى موسوعة (الحاوى) للرازى . ولا توجد الآن من هذا المصنف الا بعض فقرات فى مكتبة البودليان بأكسفورد (رقم ٥٣٦ ــ ٥٣٩) . وقال مايرهوف انه غير موجود فى أية مجموعة شرقية وان كان يعلم أنه كان موجودا بالقاهرة فى ســنة ١٣٥٠ (٢٦) ، وقد شاهدنا بدار الكتب مؤلفا منسوخا بخط من خطوط القــرن الثامن تقريبا ، ناقصا من أوله وآخره بحيث لا يمكن التأكد من اسم مؤلفه ، عنوانه « الشــامل فى الطب » (رقم ٤٢٣ طب تيمور) ، ولعله جزء من هذا الكتاب المفقود . وقد تصفحناه فلم نجد فيه أية طرافة فى التفكير تنم على روح ابن ســينا المعروفة ، وربما كان مردّ هــذا الى عدم ورود أى شىء عن الدورة الدموية فيه .

٢ ــ كتاب المهذب فى الكحل الموجود فى مكتبة الفاتيكان (Arabo 307) ذاع صيت هذا المؤلف فى زمانه ولم يصل الى علمنا منه الا نبذة اقتبسها منه صدقة بن ابراهيم الشاذلى (عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى) وهى خاصة بتدهور حالة المصابين بانسكاب صــديدى فى الخزانة

المتقدمة من العين [1] اذا تحركوا ، ونبذة أخرى فى علاج الرمد الحبيبى ذكرها هرشبرج (٥٢) .

٣ ــ كتاب المختار من الأغذية ، وهو كتاب لم يذكر فى أى ترجمة من تراجمه ولكنه موجود فى مكتبة برلين تبعا لألواردت (٢٤) ، وهو يعنى بالغذاء فى الأمراض الحادة ، ولذا فقد يكون ايحاؤه من مؤلف أبقراط المسمى «الغذاء فى الأمراض الحادة» ، وقد لقب ابن النفيس فى عنوان هذا الكتاب بالرئيس.

٤ ــ شرح فصول أبقراط : موجود فى مكتبات برلين وجوتا وأكسفورد وباريس والاسكوريال (٥٣) وفى آيا صوفيا نسخة مؤرخة ٦٨٧ هـ (١٢٨٨ م) أى سنة وفاته . والظاهر أن هذا المؤلف الذى كرسه لأشهر كتابات أبقراط ــ وكان ابن النفيس من المعجبين به ــ نال شهرة واسعة ، وقد طبع فى ايران سنة ١٢٩٨ هـ (١٨٨١ م) .

٥ ــ شرح تقدمات المعرفة وهو تعليق على تكهنات أبقراط ، وذكره حاجى خليفة وبروكلمان (٥٣) .

٦ ــ تعليق على كتاب الأوبئة لأبقراط : موجود فى آيا صوفيا (رقم 3642 a) .

٧ ــ شرح تشريح جالينوس (آيا صوفيا ٣٦٦١) وهذا المؤلف يبدأ من الكتاب الثامن ، الا أن نسبته لابن النفيس ليست أكيدة .

---

(1) Hypopyon

٨ ـــ شرح مسائل حنين بن اسحق ، ذكره بدر الدين محمود ابن أحمد العينى فى « عقود الزمان » ، وأصله موجود بمكتبة ليدن بهولاندا (رقم ١٢٩٦) وان كان بروكلمان (٥٣) يشك فى أصالته .

٩ ـــ شرح القانون ، وقيل انه شرح « فى عشرين مجلدا شرحا حل فيه المواضع الحكمية ورتب فيه القياسات المنطقية وبيّن فيها الاشكالات الطبية ، ولم يسبق الى هذا الشرح لأن قصارى كل من شرحه أن يقتصر على الكليات الى نبض الحبالى ، ولا يجرى فيه ذكر الطب الا نادرا » (٣١) . لم يصلنا على هذا الشكل وقد ذكر سارتون ترجمة جزئية له باللاتينية وضعها ألباجو ، وقد شاهدنا نسخة منها فى مكتبة أكاديميا طب نيويورك (٥٤) .

١٠ ـــ شرح مفردات القانون ومنه نسخة فريدة فى آيا صوفيا (فهرس ص ٣١٨ رقم ٣٦٥٩) .

١١ ـــ كتاب موجز القانون وهو شرح مقتضب تناول كل أجزاء القانون فيما عدا التشريح ووظائف الأعضاء ، الأمر الذى جعله سهل التناول ومحبوبا من الوجهة العملية لممارسى الطب . ولذا فانه انتشر فى كل الشرق وكان له تأثير بالغ فى طب هذه البلاد . أما أصله فموجود منه نسخ فى باريس وأكسفورد وفلورنسا وموفخ والأسكوريال ، ويقع فى أربعة أجزاء لا خمسة كما هى حال القانون ، اذ أنه ضم كتاب الأدوية الى الجزء الثانى . هذه وقد كثرت ترجمته الى اللغات الأجنبية وتعددت

التعليقات عليه . وأول هـــذه التعليقات يكاد يعاصره ، وهو لأبى اسحق ابراهيم بن محمد الحكيم المتوفى سنة ١٢٩١ م أى ثلاث سنوات بعد ابن النفيس . ثم جاء « حل الموجز » لجمال الدين محمد بن محمـــد الأقسرائى المتوفى سنة ١٣٩٨م ، وهو موجود بالمكتبة البودلية ، وطبع عدة مرات فى شمال الهنـــد وآخرها فى القرن التاسع عشر ، وقد حصلنا على نسخة منه ، ثم تعليق ثالث بدىء تأليفه فى كهرمان وانتهى نسخه فى سمرقند سنة ١٤٣٧ م لنفيس بن عوض الكهرمانى ، وهو أجود التعليقات حسب قول حاجى خليفة ، وأضاف اليه غرس الدين أحمد بن ابراهيم الحلبى بعض الحواشى حول سنة ١٥٦٣ م .

وهناك تعليقات أخرى لمحمود بن أحمد الأقساطى الحنفى (ولد سنة ١٤٠٧ م) ولشهاب الدين بن محمد البلبلى ولمحمد ابن مسعود الكزرونى (المتوفى سنة ١٣٥٧ م) ، ولكن أشهرها تعليق نفيس بن عـــوض الايرانى الأصـــل طبيب أولك بك التيمورى ، وقد طبع وشرح هذا التعليق أكثر من مرة وكان عشابو مصر يسترشدون به الى عهد قريب .

وترجمه الى اللغة التركية مصلح الدين مصطفى بن شعبان السرورى ثم أحمد كمال طبيب مستشفى أدرنة فى عهد السلطان سليمان ، وكما ترجم الى العبرية وكان عنوانه (سفرحا موجز) وطبع بالانجليزية أول مرة فى كلكتا سنة ١٨٢٨ م تحت عنوان « المغنى فى شرح الموجز » ثم أعيد طبعه فى لاكنو سنة ١٩٠٦ .

١٢ ــ تفاسير العلل وأسباب الأمراض ــ وهو مؤلف ذكره بروكلمان (٥٣) .

١٣ ــ شرح « الهداية فى الطب » . والظاهر أن المقصود بهذا شرح كتاب الهداية وهو مؤلف فى المنطق ، وسنتناول هذا فى الجزء الخاص بالمؤلفات الفلسفية .

١٤ ــ شرح تشريح القانون . وهو فى نظرنا مفخرة الطب العربى وجدير بفصل مستقل يلى الكلام عن بقية مؤلفاته .

ابن النفيس العالم فى غير الطب :

تكرر التــأكيد فى ترجمــات ابن النفيس وفيما قاله عنه معاصروه بأن هذا العالم الفذ ــ الذى لقب بابن سينا زمانه وقيل عنه « انه فرد الدهر وأخو العلم ووالده» (٣١) ، تكرر التأكيد بأنه لم يقتصر مجهوده على ضرب واحد من ضروب العلم ، فلقد قيل فى لغة زمانه المزدهرة انه « لم يكن على علم واحد بمختصر ولا شبهه بالبحر الا مختصر» (٣١) الى عبارات أخرى من الأطراء، وان كانت تبدو غريبة على آذان قارىء القرن العشرين . كما جاء فى « مسالك الأبصار » أنه صنف فى المنطق مختصرا وشرح الهداية لابن سينا فى المنطق ، وكان له فى ذلك اتجاه خاص ، اذ يبدو أنه كان يميل فى ذلك الى طريقة المتقدمين كابن سينا ؛ كما كان يكره طريقة معاصريه من أمثال الخونجى والأثير الأبهرى وألف غير ذلك كله فى اللغة وعلم البيان والحديث ، وقد انتقده معاصروه وأخذوا عليه أنه لم يقرأ فى علوم اللغة الا الأنموذج

للزمخشرى على ابن النحاس ومع ذلك أقدم على الكتابة فيها . الا أن ابن النحاس كان يقول : « لا أرضى بكلام أحـد فى القاهرة فى النحو غير كلام ابن النفيس » (٣١) .

أما الفقه فانه تولى تدريسه بمدرسة المسرورية بالقاهرة ، وشرح فيه فى أول التنبيه الى باب السـهو شرحا حسـنا . وكان ينتمى الى المذاهب الشافعية ، حتى ان تاج الدين السبكى ترجم له فى كتاب « طبقات الشافعية » الذى تناول أعيان هذا المذهب .

وقد شرح أيضا كتاب « الشفاء » لابن سينا كما أسلفنا ، ووضع فهمه فى متناول أواسط القراء ، وكتب فى الحديث وفى السيرة النبوية والشريعة .

ويبدو أنه فى تصنيفه فى غير الطب ، لم يتميز بأية طرافة فى التفكير ، ولم يستحدث أية آراء جديدة فلقد كتب كتابا صغيرا عارض فيه رسالة « حى بن يقظان » لابن طفيل وأسماه « فاضل ابن ناطق » ولقد امتدحه معاصروه قائلين انه « انتصر فيه لمذهب أهل الاسلام وآرائهم فى النبوات والشرايع والبعث الجسمانى وخراب العالم » ، وانه « أبدع فيه ودل على قدرته وصحة ذهنه وتمكنه من العلوم العقلية » (٣١) .

لم نطلع على هذا المؤلف فهو لم ينشر بعـد ، وقد ذكر سارتون (٢٧ و ٥٥) أن الدكتور يوسف شاخت يعمل فى اعداد طبعة منه وترجمه جزئية الى الانجليزية ، ولعل هذه الطبعة تمكننا

من الحكم عليه حكما مستقلا ، فان هذا المؤرخ ــ والمشهور عنه أنه منصف للعرب والمسلمين (!) ــ قد أضاف وهو فى صدده تحت موضوع « أسباب تأخر المسلمين » :

« ان ابن النفيس كان طليعة من طلائع التقهقر حين بدأت مآثر المسلمين بالنقصان وأخذ غرورهم بالنمو ، وأن غاية ابن النفيس من كتابة هذا المؤلف أن توالى الحوادث فى ماضى المسلمين كان أمرا مقدورا الى حد أننا نستطيع أن نعيد حوادثه بخيالنا بداهة ، أى لم يكن بالامكان أن يجرى تاريخ الاسلام على غير ما جرى عليه » ، ثم شبه ما أسماها بأوهام ابن النفيس بما نجده فى يوسيبيوس مطران القيصرية الذى اعتقد أن سيادة النصرانية أمر راجع الى العناية الالهية والى الفضل الذاتى فيها نفسها . وانتهى بالايماء الى أن مثل هـذا التفكير سائد بين المنتمين الى الأمم السائدة ، اذ أنهم يتوهمون أن سيادتهم ثمرة لتفضيل الله لهم على غيرهم .

ومهما يكن من أمر « حى بن يقظان » فانه بيّن ، من حكم معاصريه من جهة ومن انتقاد سارتون الغربى له من جهة أخرى ، أن مؤلفه لم ينحرف فيه عن التعاليم الدينية المستقيمة ، بل انه على عكس ذلك أفصح عن ايمـانه التام بها . وقبوله القضايا الدينية بدون بحث هو شأن أغلبية المعنيين بالعلوم اذا تحدثوا عن الدين أو ألفوا فيه ، اذ يندر وجود ذهن هو فى غنى عن أى ركيزة من اليقين ، فاذا تخلخل ايمان عقله فى ميدان ــ وسر

التقدم العلمى هو المقدرة على التشكك ـــ ارتكن الى اليقين فى غيره . ولعل طاقة الشك فى كل ذهن محدودة ، فاذا انشغلت فى ركن ما ، لم يبق له أى جهد فى غيره .

ويمكن اختصار ما ألفه ابن النفيس فى غير الطب على الوجه الآتى :

فى النحو : « طريق الفصاحة » .

فى القانون : « شرح لكتاب التنبيه فى فروع الشافعية لأبى اسحق ابراهيم الشيرازى» ، ولم يصل الينا شىء من هذا المؤلف وان عرفنا أن ابن النفيس كان يدرّس المذهب الشـــافعى فى مدرسة السرورية .

« شرح كتاب الهداية فى الفلسفة لابن سينا » وهو مؤلف يتناول المنطق . وقد قيل انه شرح كتاب الهداية فى الطب لابن سينا ولعل هذا خطأ فى النسخ اذ يبدو أنهما كتاب واحد ، كما يبدو أنه هو كتاب الهداية الذى ذكر فى بعض المراجع والهداية فى الحكمة الذى ذكره ابن أبى أصيبعة . ومما يؤسف له آنه لم يصل الينا لا كتاب ابن سينا ولا شرح ابن النفيس له .

«شرح الاشارات» وهو كتاب ابن سينا الرئيسى فىالمنطق ، وقد كثرت التعليقات على كتاب الاشارات هذا ولكن شرح ابن النفيس لم يكشف عنه بعد .

فى العلوم الدينية :

١ ــ « الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية » .

٢ ــ « مختصر فى علم أصول الحديث » .

وهذان المؤلفان موجوذان بدار الكتب بالقــاهرة (انظر بروكلمان) (٥٣) .

٣ ــ « فاضل بن ناطق » ــ وهو جدال فقهى يرد فيه على « حى بن يقظان » لابن ســينا ، وقال مايرهوف على لسان (ريتر) (٢٨) انه يوجد فى مكتبة خاصة باسطنبول مخطوط فريد من هذا المؤلف ، وقد ذكر سارتون (٥٥) فى كتاب «الشرق الأوسط فى مؤلفات الأميركيين » أن جوزف شاخت متولى طبع هذا المؤلف مع ترجمة موجزة له باللغة الانجليزية .

الباب السادس

شرح تشريح القانون

أتينا فيما سبق بتاريخ الكشف عن هذا المخطوط الخطير . ولو لم يكن لابن النفيس سوى بقية مصنفاته لسما الى أرفع مكان فى مصاف أولئك الأفذاذ المتضلعين فى العلم والفكر ، الذين رزقتهم العصور الوسطى فى بلاد متعـددة ، والذين أحاطوا ـ بفضل عقولهم النادرة ـ بكل ما توصل اليه عصرهم من شتى صنوف المعرفة . وانما فخـر ابن النفيس ، بل فخر العرب فى كل مكان ، أن هذا العالم تطاول فى جرأة على القيود التقليدية التى كانت تشل نشاط المشتغلين بالعلم ، وتحرر من سيطرة جالينوس وابن سينا ـ مع اعجابه بالأخير ـ وأنكر ما لم تره عينه أو يصدقه عقله ، وذلك فى المؤلف الذى نحن فى صدده والذى غطاه غبار المكتبات فبقى تحته مرقما مسجلا وغير مقروء ، الى أن كشف التطاوى عما يطوى من العلم الأصيل فى ثناياه .

وقد أراد البعض أن يغتصب من التطاوى الأولية فى هذا الاستكشاف . كتب بينى وهاريان فى سنة ١٩٣٩ (٥٦) عن ابن النفيس معترفين أنهما استقيا معلوماتهما من مقال مايرهوف (الذى اعترف بفضل التطاوى) . الا أنهما فى سنة ١٩٤٨ (٥٧)

ادعيا بأن لكلير لم يذكر ابن النفيس ـ وهذا عكس الحقيقة ـ (٢٣) وأنهما لهما الفضل فى ترجمة نص شرح تشريح القانون اذ أنهما طلبا الى أديب مغربى أن يترجمه لهما ، وفى سنة ١٩٥٦ (٥٨) زاد الطين بلة فى مقال ثالث عندما ادعوا أن النص الذى نشره عبد الكريم شحادة فى رسالته نقل عنهما . مغفلين القول بأن ترجمتهما منقولة عن مايرهوف .

الا أن فييت فى سنة ١٩٥٦ (٥٩) قارن الترجمتين ، فاستنتج أن ترجمة هـذا الأديب المزعوم تكاد تكون نقلت حرفيا من ترجمة مايرهوف ، بل ان الألفاظ التى أغفلت فى نص أحدهما أغفلت أيضا فى الثانى ، فتساءل بشىء من التهكم هل كان هذا « الأديب » غش الدكتورين بينى وهاربان بأن نقـل ترجمة مايرهوف بدلا من أن يتحمل هو مشقة الترجمة .

ولننظر الآن الى هذا المؤلف والى ما يحويه . لم يضع ابن سينا أى مؤلف فى التشريح البحت . وقد تناول تشريح العظام والعضلات والأعصاب والأوعية فى الجمل الخمس الأولى من الفن [1] الأول من الكتاب الأول للقانون ، وهو أحد الكتب التى سميت بالكليات . أما الكتاب الثانى من القـانون فقد تناول العقاقير المفـردة . والكتاب الثالث الأمراض من الرأس الى القدمين وعلاجها . وفى هذا الكتاب ناقش ابن سينا تشريح كل جزء من أجزاء الجسم مع وظائفه وأمراضه ، فجاء تشريح المخ

---

(١) الفن أى الباب .

مع أمـراض الرأس وهـكذا للعينين والأنف الخ . ولذا فان المعلومات التشريحية مبعثرة فى شتى أجزاء الكتاب .

وقد جمـع ابن النفيس الشذرات الخاصـة بالتشريح من الكتابين الأول والثالث وعلق عليهـا فى ذلك الكتاب الضخم الذى يقع فى أكثر من ٣٠٠ صفحة فى مخطوط برلين ٦٢٧٣ ، ويناهز الـ ٥٣٠ صفحة فى مخطوطات أخر . وقد عرج ابن النفيس على طريقة متجانسة فى مؤلفـه اذ بدأ كل فقرة بقوله : قال الشيخ (أى ابن سـينا) ، ثم استطرد فقال : (الشرح) أو (وأقول) ، وتبع هذا بشرحه أو تعليقه .

وقد يتساءل القـارىء سبب اهتمام عالم من أمثال ابن النفيس بجمع نصوص التشريح موزعة فى كتاب ضخم قديم ، بدلا من الكتابة فيه بما كان يعرفه أو بما كانت تمليه عليه تجاربه . والجواب أن وصف أعضاء الجسم لم يكن له وسيلة سـوى الرجوع الى جالينوس ، اذ أن تشريح الجثث كان يعد انتهاكا لالهية الجسم البشرى ، واذا كان بعض العلماء مارسوه ، وهذا ما نرجحه ، فانهم فعلوا فى جو من السرية والخفاء ، هذا الى أن سمحت به الكنيسة فى الغرب .

وكان السماح أول أمره فى أضـيق الحدود . فقد كانت السلطات فى ألمانيا مثلا تأذن بتشريح جثة واحـدة سنويا . أما جامعة ليريدا فى أسبانيا فقد كان الترخيص فيها بجثة كل ثلاث سـنوات ، بينما كان الطلبة فى باريس وفى انجلترا فى بحبوحة اذ كان نصيبهم أربع جثث سنويا . زد الى هذا الجهل

بوسائل حفظ الجثث الذى كان يلزم المشرح على انهاء الصفة التشريحية فى وقت قصير جدا . ولذا طالما عمد الأطباء الى سرقة الجثث وشراء أجساد المشنوقين ، ويبدو أن سبب هذا التقيد كان الخوف من استغلال التشريح كأداة للسحر أو للقتل الخفى .

وأجريت أول عملية تشريح فى باريس فى سنة ١٤٧٨ أو ١٤٩٤ ، أى نحو مائتى سنة بعد وفاة ابن النفيس ، وبنى أول مدرج للتشريح فى بادوا فى سنة ١٤٩٠ ، وفى مونبلييه فى فرنسا فى سنة ١٥٥١ ، وفى بازل فى سويسرا فى سنة ١٥٨٨ (ثلاثمائة سنة بعد وفاة ابن النفيس) وفى باريس فى سنة ١٦٠٨ ، وفى بولونيا فى سنة ١٦٣٧ .

ولنعد الى « شرح تشريح القانون » ولا داعى للاشارة الى كل النسخ الموجودة فى المكتبات المختلفة فقد ورد ذكرها فى مؤلفات سارتون (٢٧) وبروكلمان (٥٣) ، وفى مقال شـــامل لمايرهوف (٢٨) .

ومن دواعى الأسف أن أحدا لم يحاول دراسة هذا المؤلف الضخم دراســـة كاملة . قام التطاوى بتفحص الجـــزء الخاص بالقلب ، واكتفى مايرهوف ومن بعدهما بالتعليق عليه . يا حبذا لو أن باحثا فى المستقبل حمّل نفسه هذا العمل المضنى ، لعله يكشف لنا عن عجائب أخرى لتفكير هذا العالم المجدد .

وليس أدل على قيمة (الشرح) وعلى الروح السائدة فيه مما ورد فى مقدمته اذ يقول :

« وبعد حمد الله والصلاة على أنبيائه ورسله ، فان قصدنا الآن ابراز ما تيسر لنا من المباحث على كلام الشيخ الرئيس أبي على الحسن بن عبد الله بن سينا رحمه الله فى التشريح فى جملة كتاب القانون . وذلك بأن جمعنا ما قاله فى الكتاب الأول من كتاب القانون الى ما قاله فى الكتاب الثالث من هذه الكتب ، وذلك ليكون الكلام فى التشريح جميعه منظوما ، وقد صدنا عن مباشرة التشريح وازع الشريعة وما فى أخلاقنا من الرحمة ، فلذلك رأينا أن نعتمد فى تعرف صور الأعضاء الباطنة على كلام من تقدمنا من المباشرين لهذا الأمر خاصة الفاضل جالينوس ، اذ كانت كتبه أجـود الكتب التى وصلت الينا فى هذا الفن مع انه اطلع على كثير من العضلات لم يسبق الى مشاهدتها ، فلذلك جعلنا أكثر اعتمادنا فى تعرف صور الأعضاء وأوضاعها ونحو ذلك على قوله الا فى أشياء يسيرة ظننا أنها من أغاليط النساخ أو اخباره عنها لم يكن من بعد تحقق المشاهدة فيها . وأما منافع كل واحد من الأعضاء فانما نعتمد فى تعرفها على ما يقتضيه النظر المحقق والبحث المستقيم ولا علينا وافق ذلك رأى من تقدمنا أو خالفه » .

وبعد هذه الديباجة التى يعلن فيها ايمانه بتفوق الملاحظة الشخصية والبحث الأصيل على مجرد نقل أقوال الأقدمين مهما كانت منزلتهم ، وعدم اكتفائه بالتصنيف والنقل والسير على الطرق المرسومة ، ورفضه كل ما لا تقره العين والتجربة ، تابع ابن النفيس شرحه بمقدمة أراد بها ــ حسبما قال ــ الاعانة

على اتقان العلم بفن التشريح ، وهذه المقدمة تشمل خمسة مباحث :

البحث الأول : فى اختلاف الحيوانات فى الأعضاء .

البحث الثانى : فى فوائد (وجاء فى مخطوط آخر : فى قواعد) علم التشريح .

البحث الثالث : فى اثبات منافع الأعضاء .

البحث الرابع : فى المبادىء التى بها يستخرج العلم لمنافع الأعضاء بطريق التشريح .

البحث الخامس : فى ماهية التشريح وآلاته .

« أما تشريح العظام والمفاصل ونحوهما فيسهل فى الميت من أى سبب كان موته وأسهل ما يكون اذا مضى على موته مدة فنى ما عليه من اللحم حتى بقيت العظام متصلة بالأربطة ظاهرة فان هذا لا يفتقر فيه الى عمل كثير حتى يوقف على هيئة عظامه ومفاصله .

« وأما تشريح القلب والشرايين والحجاب والرئة ونحو ذلك فيوقف على كيفية حركتها وهل حركة الشرايين مصاحبة لحركة القلب أو مخالفة وكذلك حركة الرئة مع حركة الحجاب ، ومعلوم أنه انما يوقف عليه فى تشريح الأحياء ولكن يعسر ذلك بسبب اضطراب الحى لتألمه .

« وأما تشريح العروق الصغار التى فى الجلد وما يقرب منه فيعسر فى الأحياء لما بيناه وكذلك فى الموتى الذين ماتوا لمرض ونحوه وخصوصا ماكان من الأمراض يلزمه قلة الدم والرطوبات

فيخفى تلك العروق كما فى الاسهال والدق والنزف ، وأسهل تشريح هذه ما يكون فى ميت مات بالخنق لأن الخنق تحرك الروح والدم الى خارج فتمتلىء هذه العروق وتنتفخ فينبغى أن يكون ذلك بعقب الموت لأن الزمان اذا طال جمد ما يكون فى هذه العروق من الدم فيقل حجمه ويلزم ذلك نقصان انتفاخ تلك العروق : قال جالينوس : ان عادتى أن أخنق الذى أريد تشريحه بالماء لئلا يرضى أو ينفسخ شىء من أجزاء العنق اذا خنق بحبل أو نحوه » .

هل كانت هذه المقدمة مجرد (حبر على ورق) ؟ وهل نقلها نقلا عمن سبقوه فى التشريح أمثال جالينوس ؟ أم هل كان مردها الى دروس تعلمها بنفسه فى مدرسة التجربة اليومية ، وهى ترن فى آذاننا رنة صادقة كأنها صدى الخبرة الشخصية .

ان ابن النفيس ـ وهو العالم الذى صنف فى علوم اللغة والذى ملك ناصيتها ووقف على معـانى ألفاظها ومدلولاتها الدقيقة ، قد وصف التشريح بأنه فن لا علم ، ومعلوم أن الفن يكتسب بالممارسة ، والعلم يكتسب بالدرس ، وميز بين فن التشريح وعلمه اذ بدأ فقال ان مقدمته تعين على اتقان العلم بفن الشريح ، ثم فرد المبحث الثانى لفوائد (أو قواعد) علم التشريح .

وأضاف فى عنوان المبحث الرابع : « فى المبادىء التى بها يستخرج العلم لمنافع الأعضاء (وهو علم الفسيولوجيا الذى لم يكن انفصل عن علم التشريح بعد) بطريق التشريح . فالتشريح

فى نظره فن وعلم وطريقة للوصول الى العلم ، وهذه الطريقة تقتضى استعمال آلات وصفها فى المبحث الخامس تحت عنوان : « فى ماهية التشريح وآلاته » .

ثم ناقش فى هذه المقدمة تشريح العظام والأربطة والقلب والرئة والعـــروق ، الى غير هذا من مكونات الجسم ، بكلام لا يفيد منه الا من يجرى التشريح بيده ، ولا يمكن تصـــور خروجه الا من لسان من دأب على ممارسته . فقد شاهد ابن النفيس الجثث ووصفها وهى فى مراحل انحـــلال اللحم عنها وظهور العظـــام والأربطة من تحته ، وقال ان تفحص العظام لا يحتاج الى عمل طويل ، ثم كاد يقترب من علم آخر لم يكن استقل فى هذا الزمن من العلوم الطبيـــة الأخرى ، وهو علم التشريح المرضى (أو الباثولوجيا) ، وهذا عندما لاحظ أن « تشريح العروق الصغار فى الجلد يعسر فى الأحياء لتألمهم ، وفى الموتى الذين ماتوا من أمراض تقلل الدم كالاسهال والدق والنزف ، وأنه يسهل فيمن مات بالخنق لأن الخنق تحرك الروح والدم الى الخارج فتنتفخ العروق ، على أن هذا التشريح ينبغى أن يعقب الموت مباشرة لتجنب تجمد الدم » .

والى هذا فان أردنا تكوين ملف وهمى عنوانه « هل مارس ابن النفيس التشريح ؟ » فعلينا أن نضم اليه مستندا ذكرناه عند الكلام عن (شرح القانون) ، وهو نبـــذة يقول فيها : « والتشريح يكذب هذا » . ولعـــل السبب فى أن ختم ابن النفيس مقدمته باقتباس من جالينوس هو رد تهمة انتهاك حرمة

الجسم البشرى ، وهى تهمة كانت فى عهده خطيرة ، والتمويه باسناد أقواله لهذا العالم الفاضل . وعندنا أنه اذا كانت تلك المعلومات ـــ وهى كما نكرر القول لا تفيد الا من يرغب فى تشريح الجثث بنفسه ـــ استقاها فعلا من الفاضل جالينوس ، لكان بدأ بذكر مصدره كعادة أهل زمانه الذين كانوا يقيسون قيمة الكلام بقدمه .

وحين ننظر الى الجديد فى (شرح تشريح القانون) فى صدد دورة الدم ، ولكى ندرك أثر اتجاهه فى التفكير ومداه البعيد ، يجدر بنا أن نستعرض نظريات حركة الدم التى تتابعت منذ الأولين حتى جمدها جالينوس ، ثم تعليقات ابن النفيس عليها .

نظريات حركة الدم قبل ابن النفيس :

اننا حين نذكر حركة الدم نود أن نميز بين الحركة والدورة ، اذ أن فكرة الدورة ، أى الحركة فى دائرة ، لم تنشأ الا فى القرن التاسع عشر وأن كلمة الدورة [١] استعملها سيزالبينو أول مرة فى سنة ١٥٧١ فى هذا المعنى .

ويجدر بنا قبل أن نسرد الجديد فى أقوال ابن النفيس أن نستعرض هنا النظريات التى دان بها العلماء قبله .

ويمكن تقسيم تاريخ معرفة الدورة الدموية الى ثلاث حقب.

(١) الحقبة الأولى السابقة لأبقراط وجالينوس ، وهى حقبة أطباء مصر الفرعونية . لا نعلم عن تعاليم تلك الفترة سوى ما جاء

Circulation (١)

فى الأجزاء التى وصلت الينا عن طريق برديات ابرز وسميث وبرلين من كتابى « القلب » و « الأوعية » . وتلك معلومات بتراء ، بمعنى أنها لا تشمل كل ما عرفه المصريون . ومرد هذا النقص الى أسباب أوضحناها فى غير هذا المكان (٢ و ٦٠) ؛ أهمها قلة المصادر المصرية التى وصلت الينا ، وكنه هذه المصادر التى هى أشبه بالمصنفات الشعبية وتبعد كل البعد عن المؤلفات التعليمية ، واحتمال سرية التعاليم الطبية لعــدم افشائها الى الأغراب . بيد أن النبذ التى وصلتنا تدل على أن المصريين عرفوا النبض بل لعلهم عدوه ، وأنهم فطنوا الى علاقته بالقلب فقالوا عنه ان القلب يتكلم عن طريق النبض فى كل الأعضاء ، كما قالوا ان الأمراض والمواد المرضية تسرى عن طريق الأوعية الى كل أنحاء الجسم وان أطلقوا اسما واحدا على الأوعية والقنوات والأوتار .

(٢) العهد الاغريقى القائم على أبقراط ، الذى قال ان الكبد هو الأصل فى الدم وفى حركته . فيصل الغذاء (الكيلوس) اليه من الأمعاء عن طريق الوريد البابى [١] ، فيتحول فيه الى دم مشحون بالروح الطبيعى ثم ينتقل منهعنطريق الوريد الأجوف الى البطين الأيمن ومنه الى بقية الجسم عن طريق الأوردة ، أى أنه فى حركة مد وجزر متواصلة تختلف كل الاختلاف عن الحركة الدورية ، أما القلب فكأنه جيب من الوريد الأجوف لا أثر له

---

(١) الحقيقة أن الكيلوس يسرى فى الأوعية اللمفاوية لا فى الوريد البابى .

فى حركة الدم ، يدخله الدم ليتخلص فيه مما يكون قد علق به من شوائب ـ ثم يعود مطهرا الى الأوردة ومنها الى الأعضاء أما الشرايين فكانت فى اعتقاد أرسطو تحوى هواء ومن هنا سميت باسمها [١] المشتق من الهواء [٢] ، ووظيفتها نقل الدم من الرئتين اللتين كان عملهما مقصورا على التبريد .

(٣) نظريات هيروفيلوس وأيرازستراتوس السكندريين اللذين أوشكا على أن يصلا ، فى القرن الثالث قبل الميلاد ، الى نظرية الدورة الدموية ، فان هيروفيلوس ـ وان كان متأثرا بنظرية الروح أو النفث ـ عرف أن الشرايين أوعية دموية وليست تحوى هواء ، كما أنه أظهر دور القلب المحرك فى حدوث النبض ، وألف فى النبض فدرس هذه الظاهرة الهامة بعناية ، ووصف كيف تتغير قوته وسرعته فى الحالات المرضية ، وشبه حركات القلب بحركات الرئة ، وميز بين الدم الوريدى والدم الهوائى (أى الشريانى) ، وذكر أن التنفس لا يحدث فى الرئة وانما فى الأنسجة ، وهى نظرية تنطوى على بعض الخطأ ولكنها تدعو الى التعجب لاقترابها من كيمياء الأنسجة الدقيقة .

أما أيرازستراتوس فانه اقترب من الحقيقة أكثر من هيروفيلوس اذ أنه وصف سير الدم من الكبد الى القلب عن طريق الوريد الأجوف ثم من القلب الى الرئتين عن طريق « الشريان الشبيه بالوريد » ووصف صمامات الأورطا والقلب

---

(١) Artery (٢) Air

ووظيفتها ، كما وصف أباصر القلب ، وتصور القلب على شكل مضخة توزع الدم المهوّى الى الجسم بأكمله ، وفوق كل هذا فانه فرض وجود منافذ نهائية بين الجهاز الشريانى والجهاز الوريدى (وهى تقارن تلك التى نسميها بالأوعية الشعرية) ، الا أنه ظل يعتقد أن حركة الدم تنشأ فى الكبد ولم يميز تمييزا دقيقا بين الدم الشريانى والنفث الهوائى .

ومن المؤسف أن هذه التعاليم التى كانت تدانى الحقيقة نسيت فيما بعد . ولنا أن نبحث الى أى مدى تأثرت نظريات هذين العالمين السكندريين بالتعاليم المصرية القديمة ، مثلا بتلك التى تناولت النبض ، اذ أن كتاب القلب الذى أسلفنا ذكره مصدّر بعبارة عجيبة وهى : « هذا مبتدأ التعاليم السرية لكل طبيب » ، فقد تساءلنا فى موضع آخر هل كان علم النبض ضمن ما أخفاه الكهنة المصريون عن أفلاطون وأدوكسوس وأبقراط (٢ و ٣) عند زيارة هؤلاء لمصر ؟ اذ أن مدرسة الاسكندرية التى علّم فيها العالمان السكندريان كانت وريثة المدارس المصرية العتيقة وكانت غنية بالمؤلفات القديمة التى جمعت فى مكتبة الموسيون بالاسكندرية .

(٤) جالينوس (القرن الثانى الميلادى) اتخذ الفاضل جالينوس نظريات الدورة القديمة قاعدة بنى عليها نظريته المشهورة ، بعد أن لاحظ أمرين جديدين : أولهما أن الأوردة الواردة الى القلب أكثر اتساعا من الأوعية الصادرة عنه ، ثانيهما أن قطع الشريان يؤدى الى نزف دموى ، فأضاف الى الصورة

تنقيحا مهما . قال ان الدم ، بعد وصوله الى البطين الأيمن ، يمر عبر الحاجز الموجود بين البطينين ، عن طريق مسام غير مرئية ، الى البطين الأيسر حيث يمتزج بالهواء الحامل للروح الحيوى القادم من الرئتين عن طريق الأوردة الرئوية (التى كانت تسمى الشريان الوريدى) . ان هذا الدم بعد أن يتشبع بالروح الحيوانى فى المخ ، يوزع على الجسم بأكمله عن طريق الشرايين ثم يعود الى القلب عن طريق الشرايين نفسها . أى أنه يخضع لحركة مد وجزر [1] .

فكأن الجهاز الوريدى فى هذا التأويل منفصل تماما عن الجهاز الشريانى ، فيما عدا المسام المزعومة فى حاجز البطينين ، وكانت الحركة فى كل من الجهازين مدا وجزرا من القلب والرئتين الى الأحشاء وبالعكس .

وقد استقرت تلك النظرية طوال القرون الوسطى الأوروبية حتى القرن السابع عشر على الأقل فى التعليم الرسمى — وسجلها ليوناردو دا فنشى فى لوحاته التشريحية المشهورة .

(٥) ابن سينا : أما ابن سينا فقد أخذ بصفة عامة بنظريات جالينوس ، ولكنه — وقد انتمى الفلاسفة الى المشائيين — أضاف

---

(١) وصف ابن سينا نظرية الأرواح فى خمسة أبيات من « الأرجوزة » هى المرقمة ١٠٧ الى ١١١ :

والروح ينقسم للطبعى — من البخار الطيب النقى
وللذى فى القلب قد تنقى — وهو الذى به الحياة تبقى
وللذى يحمله الدماغ — وفى الغشاء جنسه يصاغ
واكملت انواعه البطون — فالحس والرأى به يكون
وكل روح فلها قواها — وليس يختص بها سواها

الى هذه النظريات بعض المعلومات الخاطئة التى استقاها من تعاليم أستاذه المبجل أرسطو ، وتلك معلومات كان جالينوس قد أنكرها قبله بثمانمائة سنة أو تزيد ، من ذلك قوله ان القلب البشرى به ثلاثة بطون ، وهذا يوافق قول أرسطو بأن عدد البطينات يتمشى مع حجم الحيوان .

نظرية ابن النفيس :

ولننظر الآن الى ما ورد من تعليقات ابن النفيس فى «شرح التشريح» على ما قاله ابن سينا وجالينوس ، دون التقيد بمراعاة الترتيب الذى اتبعه ابن النفيس فى بسط آرائه ، اذ أن كتابه يزخر بالتكرار والاستطراد وأنه لا يتبع نظاما مسلسلا فى عرض موضوعه ، وهذا طبيعى لأنه اتبع النظام نفسه الذى روعى فى تأليف « القانون » .

ونحن نلاحظ أولا أن تفكيره يتسم بالمنطق الحاد وأن نتائجه صحيحة فى معظم الحالات ، اللهم الا عندما أكد مثلا على عكس ما قاله ابن سينا — أن البطين الأيمن لا ينقبض تلقائيا وانما يجتذب الدم بامتصاص سلبى أى أن الفترة العاملة هى فترة الانبساط لا الانقباض .

ويمكن حصر ما أتى به ابن النفيس من جديد فى الفقرات التالية الخاصة بالروح ، والتى يتضح منها مبدئيا أن المؤلف قبل النظرة السائدة ، وهى أن البطين الأيسر والشرايين مليئة بالروح ، وأن الروح تتولد فى التجويف الأيسر باختلاط الدم بالهواء . قال ابن النفيس :

« والذى نقوله نحن والله أعلم ان القلب لما كان من أفعاله توليد الروح وهى انما تتكون من دم رقيق جدا شديد المخالطة لجرم هوائى فلا بد وأن يحجل فى القلب دم رقيق جدا وهواء ليمكن أن يحدث الروح من الجرم المختلط منها وذلك حيث تولد الروح وهو فى التجويف الأيسر .

ثم يفسر ضرورة الرقة الشديدة فى الدم الواصل الى التجويف الأيسر وكيفية حدوث هذه الرقة . فيقول : « ولا بد فى قلب الانسان ونحوه مما له رئة من تجويف آخر يلطف فيه الدم ليصلح لمخالطة الهواء فان الهواء لو خلط الدم وهو على غلظه لم يكن جملتها جسم متشابه الأجزاء . وهذا التجويف هو التجويف الأيمن » .

ستطيع اذن أن نستخلص أن وجود تجويف آخر محتم فى نظره لضرورة تلطيف الدم تمهيدا لمخالطته الهواء . وهذا استنتاج غائى بحت . ونعنى بذلك استنتاجه وجود الشىء من ضرورته وربما قال البعض انه سبق فى ذلك (لمارك) وأمثاله فى نظريتهم القائلة بأن الوظيفة تكيف العضو ، ولكن العلماء المتعقلين كانوا — فى رأينا — كثيرا ما يبدأون بملاحظة واقعية ، ثم يشغلون أنفسهم بعد ذلك بمحاولة استنتاج ضرورتها .

ويسترسل ابن النفيس فى سرده لآرائه فيقول :

« واذا لطف الدم فى هذا التجويف (أى الأيمن) فلا بد من نفوذه الى التجويف الأيسر حيث مولد الروح » . وهذا بالطبع ضرورى لاتمام نظريته فى تكوين الروح .. ثم يضيف : « ولكن

ليس بينها منفذ فان جرم القلب هناك سميك ليس فيه منفذ ظاهر كما ظنه جماعة ولا منفذ غير ظاهر يصلح لنفوذ هذا الدم كما ظنه جالينوس فان مسام القلب هناك مستحصنة وجرمه غليظ .

من أين اذن يكون مرور الدم ؟ ألم ينكر صراحة وجود مسام فى الحاجز ؟ لقد بحث ابن النفيس عن مكان هذا الاتصال ، فلم يزد من أن يقطع بأن الدم بعد أن يلطف فى التجويف الأيمن ينفذ الى الرئة وهناك ـــ على حد قوله « يخالط الهواء ويرشح ألطف ما فيه وينفذ الى الشريان الوريدى (الوريدى الرئوى) ليوصله الى التجويف الأيسر وقد خالط الهواء وصلح لأن يتولد منه الروح » ويضيف « وما بقى منه أقل لطافة تستعمله الرئة فى غذائها » .

وقد أكد هذا فى موضع آخر بقوله : « فان نفوذ الدم الى البطين الأيسر انما هو من الرئة بعد تسخنه وتصعده من البطين الأيمن كما قررناه أولا » .

وكأنه لم يكتف بكل هذا فأراد زيادة التأكيد بأن الدم انما يجرى فى اتجاه واحد وأنه ليس موضوع مد وجزر فقال أيضا : « قوله وايصال الدم الذى يغذو الرئة الى الرئة من القلب ، هذا هو الرأى المشهور وهو عندنا باطل فان غذاء الرئة لا يصل اليها من هذا الشريان لأنه لا يرتفع اليها من التجويف الأيسر من تجويفى القلب اذ الدم الذى فى هذا التجويف انما يأتى اليه من الرئة لا أن الرئة آخذة منه . وأما نفوذ الدم من القلب الى

الرئة فهو فى الوريد الشريانى (الشريان الرئوى) . واستطرد فى معرض حديثه عن سبب نحافة جدار الوريد الرئوى فقال : « وليكون أطوع (أى جدار الوريد) ليرشح منه ما يرشح منه الى الرئة من الدم اللطيف ، هذا أيضا على الرأى المشهور ، والحق أنه ليس كذلك بل ليكون أطوع لقبول ما ينفذ منه من الدم الهوائى الذى يوصله من الرئة الى القلب .

يبدو بوضوح فى كل هذه الفقرات أن ابن النفيس اهتدى الى العلم بأن اتجاه الدم ثابت وأنه يمر من التجويف الأيمن الى الرئة حيث يخالط الهـــواء ، ومن الرئة عن طـــريق الشريان الوريدى (الوريد الرئوى) الى التجويف الأيسر .

ولننظر الآن الى ما قاله عن الشريان الوريدى (الوريد الرئوى) والوريد الشريانى (الشريان الرئوى) اذ أن أقواله فى هذا الصدد ترتبط ارتباطا وثيقا بما سبق .

بدأ ابن النفيس بأن تنـــاول الشريان الوريدى (وهـــو ما نسميه بالوريد الرئوى) ، فقال : « ان هذا العرق شبيه بالأوردة وشبيه بالشريان . أما شبهه بالأوردة فلأنه من طبقة واحدة وأن جرمه نحيف وأنه على قوام ينفذ فيه الدم لغذاء عضو . ويفسر هذا فى فقرة أخرى بقوله : « فلا بد وأن يكون هذا الدم اذا لطف نفذ فى الوريد الشريانى (الشريان الرئوى) الى الرئة لينبث فى جرمها ويخالط الهواء ويصفى ألطف ما فيه وينفذ الى الشريان الوريدى ليوصله الى التجويف الأيسر ، ثم فى مكان آخر: «ولذلك جعل الوريد الشريانى (الشريان الرئوى

شـــديد الاستحصاف ذا طبقتين ليكون ما ينفذ من مســـامه شديد الرقة . وجعل الشريان الوريدى نحيفا ذا طبقة واحدة ليسهل قبوله لما خرج من ذلك الوريد ، ولذلك جعل بين هذين العرقين منافذ محسوسة .

وفيما يتصل بهذه المنافذ يجب أن تتذكر أن العدسة المكبرة لم تـــكن قد اخترعت بعـــد وأن مالبيجى لم يكشـــف عن الأوعية الشعرية الا بعده بقرون ، مما جعل الشرايين تعد منفصلة انفصالا تاما عن الأوردة . ولذلك فان ابن النفيس لم يبعد كثيرا عن الحقيقة عندما قال ان الدم يمر من مسام بين العرقين أو من منافذ محسوسة هى بمثابة الأوعية الشعرية .

وتابع وصفه للشريان الوريدى (أى الوريد الرئوى) بأن قال : « أما شبهه بالشريان فلأنه ينبض ، وينبت على قولهم من القلب . ولما كان نبض العروق من خواص الشرايين لا جرم كان الحاق هذا العرق بالشرايين أولى ... ونقول ان العروق التى تنبت فى الرئة تخالف جميع عروق البدن وذلك لأن فى جميع الأعضاء يكون للعرق الضارب طبقتان ولغـــير الضارب طبقة واحدة . والضارب مستحصف وغير الضـــارب نحيف وعروق الرئة بالعكس من هذا » .

وهنا يبـــدو جليا أنه يصف الشريان الوريدى (الوريد الرئوى) بأنه ينبض بينما لا ينســـب الى الوريد الشريانى (الشريان الرئوى) سوى حركة تابعة لحركة الرئة . وفى هذا خطأ واضح . ثم علق على اختـــلاف أوعية الرئة عن الأوعية

الأخرى من حيث تكوين جدرانها فقال : « واختلفوا فى سبب ذلك فقال اسقلبيادوس ان ذلك لأن شرايين الرئة شديدة الحركة كبيرتها جدا فتهزل وذلك لأنها تنبض بنفسها وتنبسط وتنقبض تبعا لانبساط الرئة وانقباضها والحركة المفرطة مهزلة . وأما أوردتها فانها تتحرك تبعا لحركة الرئة فقط . والحركة المعتدلة لسمنة مغلظة للجرم » . وهذا التعليل يلائم اهتمامه بتفسير كل ظاهرة تفسيرا عقليا يتفق مع النظريات السائدة وان كان لم يستند فى مزاعمه الى برهان .

وهناك نقطة أخرى لم يوافق فيها ابن سينا — وهى عدد تجاويف القلب . « قوله وفيه ثلاثة بطون . وهذا كلام لا يصح فان القلب له بطنان فقط أحدهما مملوء من الدم وهو الأيمن ، والآخر مملوء من الروح وهو الأيسر ، ولا منفذ بين هذين البطنين البتة ، والا كان الدم ينفذ الى موضع الروح فيفسد جوهرها ، والتشريح يكذب ما قالوه .

وهذه العبارة الأخيرة جديرة بالتأمل . فقد سبق أن قال لنا فى ديباجة (شرح التشريح) : « وقد صدنا عن مباشرة التشريح وازع الشريعة وما فى أخلاقنا من الرحمة » ، وهاهو يقدم لنا الدليل على اعتماده على هذا التشريح اذ يقول : « والتشريح يكذب ذلك » . وهو بطبيعة الحال لا يعنى تشريح جالينوس ولا ابن سينا ، ولسنا نجد تفسيرا لهذا التناقض الظاهرى سوى أنه حرص على عدم اثارة حنق رجال الدين شأنه فى ذلك شأن كثيرين من العباقرة المجددين أمثال

كوبرنيكوس وجليليو عندما استهلوا مؤلفاتهم الثورية بتأكيد تبعيتهم للعقائد الدينية السائدة فى عصرهم . كما أنه حرص على ألا يتهم بالجهل كما كان يتهم كل من ينكر تعاليم جالينوس اذ اعتذر عن هذا النقد حين قال فى الديباجة نفسها « الا فى أشياء يسيرة ظننا أنها من أغاليط النساخ » وذلك لاثارة الشك فى أمانة النساخ لا فى علم الفاضل جالينوس .

والى هذا فان فى هذا الكتاب فقرات عدة تستحق الذكر وتحض على التأمل والاعتبار ، وحسبى أن أذكر عبارة واحدة لها أهميتها بالنسبة لتاريخ الطب وهى خاصة بتغذية عضلة القلب التى كان قد قال عنها ابن سينا انها عن طريق الدم الموجود فى تجويفه . يقول ابن النفيس : « قوله ليكون له مستودع غذاء يتغذى به وجعله الدم الذى فى البطين الأيمن منه يتغذى القلب لا يصح البتة فان غذاء القلب انما هو من الدم المار فيه من العروق المارة فى جرمه » .

وهذه العبارة تجعل ابن النفيس أول من فطن الى وجود أوعية داخل عضلة القلب تغذيها ، وهى تضيف دليلا آخر على أن ابن النفيس مارس التشريح ، كما أنها تجعل منه أول من وصف الشريان الأكليلى وفروعه .

ولعلنا نستطيع الآن أن نتصور الدورة الدموية كما كان يتصورها ابن النفيس مستندين فى ذلك الى ما سبق أن استشهدنا به من فقرات وردت فى « شرح تشريح القانون » .

فقد كان يرى أن الدم يأتى غليظا من الكبد الى التجويف

الأيمن حيث يلطف ، ثم يمر فى الوريد الشريانى (الشريان الرئوى) وهو وعاء غير نابض يتحرك بحركة الرئة حـــركة معتدلة هى سبب غلظ جداره ، ثم يصل الى الرئة حيث ينقسم الى قسمين : قسم رقيق يصفى من مسام الشريان الرئوى ، وقسم غليظ يتبقى فى الرئة لتغذيتها . أما القسم الرقيق فانه يختلط بالهواء القادم الى الرئة عن طريق القصبة الهوائيـــة ويدخل الشريان الوريدى (الوريد الرئوى) عبر جداره النحيف . وعلة هذه النحافة أولا ضرورتها لتسمح بمـــرور الدم الرقيق ، ثم كثرة حركتها اذ أنها كانت ــ فى زعمه ــ نابضة تلقائيا بالاضافة الى أنها متحركة تبعا لحركة الرئة . ثم يصل الدم الرقيق المخلوط بالهواء الى التجويف الأيسر حيث تتكون الروح التى تخرج منه الى الأورطة فالشرايين فالأنسجة ، أما غذاء القلب فيكون عن طريق أوعية خاصة تمر فى صميم عضلة القلب .

الباب السابع

حالة الطب فى الغرب فى عصر ابن النفيس

تاريخ الجامعات فى ايطاليا حتى تاريخ الكشف عن الدورة الدموية

عاش ابن النفيس فى القرن الثالث عشر الميلادى وهو العصر الذى امتاز به الغرب بظهور الجامعات وببدء تطورها البطىء الذى أوصلها الى شكلها الحالى . وقد بدأت هذه الظاهرة تبدو فى ايطاليا وان كان تاريخ مدارس الحقوق فى تلك البلاد يرجع دون انقطاع الى زمن الرومان . وقد كانت مراكز التعليم فى هذا الوقت تسمى (مدارس عامة) [١] ، أى أنها مفتوحة لجميع أنواع الطلبة دون النظر الى نشأتهم ، ثم حازت هذه المدارس بعد وقت من انشائها براءة [٢] من البابا أو من الامبراطور أقرت سلطاتها .

أما لفظة الجامعة [٣] فقد كانت تطلق على أية مجموعة متناسقة من الأشخاص ، وكثيرا ما كانت تستعمل للنقابات المهنية . وفى بولونيا ، بعد سنة ١١٧٠م بزمن قصير ، تكونت أول اتحادات أو Universitates للطلبة ، وقامت اتحادات الطلبة تلك بدفع

---

(١) Studia generalia.
(٢) Bulla.
(٣) Universitatis.

مرتبات للأساتذة . أما قبل ذلك فكان الأســاتذة يتقاضون مرتباتهم من الطلبة مباشرة بمقتضى اتفاقات فردية ، وكانت نتيجة النظام الجديد أن تولت النقابات دفع مرتبات الأساتذة وكان أن وجهت تلك الاتحادات على وسائل تيسير معيشة الأساتذة ؛ والى هذا فان قوة أعضائها الشرائية كانت ضخمة فى المدينة ، اذ كانوا يكونون ١٠ فى المائة من السكان ، ولهذين السببين سرعان ما تحكمت تلك الاتحادات فى شئون التدريس وفى ادارة المدينة ، مهددة بالهجرة الشاملة الى مدينة أخرى اذا لم تجب طلباتها .

ومن ظواهر سلطانها أنها كانت تتمتع فى المدرسة بالسيطرة على كل الشئون الدراسية عدا منح الاجازات (الشهادات) ، أما فى المدينة فان سلطة القضاء فى الأمور المدنيــة فيما يخص الطلبة كان من اختصاصها القانونى ، وهو اختصاص امتد فيما بعــد الى بعض الحالات الجنائيــة . وقد أدت تلك الحالة الى حزازات مزمنة بين الطلبة وأولى السلطان فى بولونيا ، انتهت حوالى سنة ١٢٠٠ الى هجرة موجات متكررة من الطلبة الى مدن أخرى أمثال مودينا ، رجيو ، فيشنزا وأريزو ، حيث نشأت مدارس جديدة ، وأخيرا الى مدينة بادوا التى نجد فى أخبارها [١] نبذة تقتصر على ذكر انتقال (مدرسة) بولونيا اليها فى سنة ١٢٢٢ . وهذا معناه حدوث هجرة شاملة للمدرسة كلها . ومما

Chronicles. (١)

يؤكد هذا مستند مؤرخ فى سنة ١٢٣٨ يفهم منه أن عدد الطلبة فى بادوا فى تلك السنة كان يتراوح بين ٢٥٠٠ و ٣٠٠٠ ، أى أن بولونيا حوالى سنة ١٢٢٢ أصبحت خالية من الطلبة .

الا أن الحزازات نفسها ما لبثت أن تكررت بين سلطات بادوا والطلبة ، واستمرت العلاقات بينهم قلقة مضطربة أو غير ودية ، اذ أننا نرى الطلبــة يوقعون عقــدا مع مدينة فرشلى يمنحهم امتيازات عديدة مثل ايجار ٥٠٠ منزل ودفع مرتبات لأستاذين واعفاء الطلبة من الضرائب ، وتقديم اعارات بفوائد معينة ، وتوفير خدمة نساخين لهم .. الخ .

ومن سنة ١٢٣٧ الى سنة ١٢٥٦ وقعت بادوا تحت حكم قاس هو حكم ازلينودا رومانو عاهل فيرونا المنتمى الى حزب الجبلين وزوج ابنة الامبراطور فردريك الثانى ، فتضاءل شأن جامعة بادوا تحت حكمه الى أن توفاه الله ، فبادرت الجامعة بتجديد لوائحها ، وازداد عدد طلبتها ، وخاصة بعد أن منيت بولونيا بالحروب ، وبعد أن حرم البابا وجود الستوديوم بتلك المدينة .

وفى سنة ١٢٦٤ أقر البابا أوربان الرابع العادة القديمة التى تخول الأسقف منح الدرجات .

وفى سنة ١٣٦٤ اعتمد كليمنت السادس انشاء ستوديوم فى العلوم الدينية فى بادوا .

ويظهر أن الطلبة فى بادوا انقسموا الى شعب وطنية تبعا

لجنسياتهم المختلفة كما كانت الحال فى بولونيا ، وكانت كل شعبة تنتخب مديرها .

وكان عدد الشعب وقت أن أبرم العقد مع مدينة فرشلى أربعة : الفرنسية والايطالية والبرفنسالية والألمانية ، ولكن الأمور سرعان ما تغيرت ، ففى سنة ١٢٦٠ كان عدد الشعب اثنتين : شعبة الناحية القريبة من جبال الألب وشعبة عبر الألب ، وكان يدير شئونها مدير [١] واحد تعاونه هيئة من حاملى ألقاب أخرى [٢] . أما تقسيم الشعب هذا فهو معمول به الى الآن ، ذ أن طلبة الجنوب لهم اتحاد وطلبة الشمال لهم اتحاد آخر . الا أن النقابات أجبرت على التنازل عن حق اختيار الأساتذة لبعض الكراسى فى سنة ١٤٤٥ وللبعض الآخر فى سنة ١٥٦٠

ومن سنة ١٣١٨ الى سنة ١٤٠٥ حكمت أسرة كارارا مدينة بادوا ، وازدهرت الجامعة تحت رعايتها وأهدى أحد أعضائها ، وهو فرنسسكو دا كرارا أول مبنى للجامعة فخصص للقانونيين، وأغلب الظن أنه انما قدمه لتعويضهم عن ضياع سلطاتهم القانونية على كليتى الطب والقانون . كما أن التدابير اتخذت لمعاونة الجامعة ماليا بأن خصص لدفع المرتبات دخل ضريبتين من الضرائب المفروضة على المدينة احداهما ضريبة الثيران . وما تزال الجامعة القديمة تسمى (الثور) [٣] ، ومن الممكن أن تكون ضريبة الثيران وهى أهم مواردها هى السبب فى تلك التسمية .

---

(١) Rector

(٢) Councillor. Chancellor, Bedel.

(٣) Il Bo'.

ولهذه التسمية تفسير آخر فانه يعتقد أن الجامعة شيدت مكان مطعم قديم كان يحمل هذا الاسم .

ولكن بادوا لم تصل الى قمة مجدها العلمى الا بعد سنة ١٤٠٥ ، عندما خضعت لجمهورية البنـدقية التى دام حكمها المستنير حتى سقوطها عام ١٧٩٧ ولم ينقطع الا مدة قصيرة وقت حلف كمبرى . وكان هذا التقدم نتيجة طبيعية للمزايا المادية التى قاطت على تلك الجامعة ، ولحرية الفكر المطلقة التى سادتها تحت هذا الحكم فقد منح الدكاترة (علاوات) سخية ، وخلعت على المديرين الأوسمة وسائر علامات الاجلال . واشترط على من كان يتقدم للوظائف الرسمية أن يكون قد أمضى دورة دراسية بتلك الجامعة دون غيرها ، وشيدت مبان واسعة ما تزال قائمة .

أما حرية التفكير فانها لم تكن جديدة على بادوا . فان أول أعلام الطب الذين لمعوا فيها كان الثائر بترودى أبانو (١٢٥٠ ـ ١٣١٦) . وهو شخص يدعو للدهشة ، كان قبل تولية كرسى الطب ممن يشتغلون بالسحر والشعوذة والتنجيم ، وكان عالما فى علوم الطبيعة ، وأمضى مدة من حياته فى القسطنطينية حيث درس مؤلفات جالينوس وأرسطو فى أصولها الاغريقية ، مختلفا فى ذلك عن سائر معاصريه الذين كانوا يعتمدون فى ذلك على تراجم وتعليقـات كثيرا ما كانت تشـوه الأصل . ثم مارس التدريس فى باريس ، وهو الذى أدخل أفكار الفيلسوف العربى ابن رشـد فى بادوا ، فامتـازت المدرسـة بذلك على النزعة

المدرسية الذائعة فى بولونيا وباريس حتى القرن السادس عشر ، وقد نشر سنة ١٣١٠ ثلاثة مؤلفات عد الرهبان (الدومينيكان) بعض ما جاء بها كفرا فحاكموه ، الا أنه مات فى السجن قبل صدور الحكم عليه بالموت بالنار ، ويروى أن عظامه أحرقت بعد وفاته تنفيذا لهذا الحكم ، وقد حاز فى مهنته شهرة واسعة وكان من بين مرضـــاه البابا هونوريوس الرابع والمـــاركيز أريزو دى أستى ، وعاصر ماركوبولو المستكشف وعرفه وذكره فى كتبه العلمية . ويظهر فى تلك الكتابات تأثير الكلاسيين ، وهو اتجاه مبنى على حرية النقد وعلى الاعتماد على التفكير الشخصى على عكس المألوف فى هذا الوقت .

وقد ازدادت تلك الظواهر وضوحا بعد سقوط القسطنطينية عندما نقلت المخطوطات الاغريقية الى الغرب وبادر العلماء فى دراسة اللغة الاغريقية وفى ترجمة النصوص من أصولها ، وقد تركز نشاط الطبع فى البندقية جارة بادوا وسيدتها .

ومن ظواهر الاستقلال الفكرى التى كانت بادوا تمتاز به أن الدكتوراه فى الطب منحت ليهودى سنة ١٤٠٩ بعد دخول البندقيين فيها بأربع سنوات ، وأن طلبة البروتستانت كانوا يترددون عليها حتى فى أصعب أوقات المناهضة لهم ، فازداد فيها الطابع الدولى الذى كان يتلاشى من مراكز كثيرة أخرى فى مختلف دول أوروبا نتيجة لنهوض النزعة الوطنية فيها . وقد أدى ازدياد عدد المتخرجين لخريجين من البروتستانت الى اصدار

البابا بيوس الرابع البراءة المسماة (قدس الأقداس) [1] التى يحرم فيها غير الكاثوليك نيل الدرجة فى الطب على الطريقة التى كان صرح بها أوربان الرابع ، أى بتوقيع الأسقف أو الامبراطور ، فكانت اجابة جمهورية البندقية ازاء اعتذار الأساقفة عن اعتماد الدرجات ، أن منحت الدرجة عن طريق كونت بلاتينى يحمل لقبا امبراطوريا ، فأدى هذا الى احتجاجات عنيفة من جانب الفاتيكان ردت عليها الجمهورية بكل هدوء بأنها لا ترى من الضرورة أن يتضلع الطبيب فى اللاهوت ليمتاز فى الطب . ولولا هذا الموقف ما تسنى لوليام هارفى ، الكاشف عن الدورة الدموية أن ينال الدرجة سنة ١٦٠٢ من يد الكونت « سيجزموندى كابوديستا » .

وقد تفشت الأوبئة فى أوربا فى القرن الرابع عشر ، وكان آخرها طاعون سنة ١٣٤٦ وسنة ١٣٦٠ ، سنة ١٣٦٩ ، ومع أن سبب الأمراض المعدية لم يكن معروفا بوضوح فقد ابتكرت البندقية طرقا وقائية معقولة فمنعت دخول الأشخاص المخالطين أو المنقولات الملوثة أو المشتبه فيها الى الجمهورية ، وعينت مفتشين لهذا الغرض ، ومن سنة ١٣٧٧ فرضت الحجر على المراكب القادمة من الشرق لمدة ثلاثين يوما مدت فيما بعد الى أربعين يوما (ومن هذا العدد اسم الكارتتينا من كارتتى : أربعين) . وفى سنة ١٤٠٣ خصصت الجمهورية جزيرة سانتا

---

(1) Sacrosancta.

ماريا دى فازاريت لهذا الحجر وحولت ديرا موجـودا بها الى مستشفى ، وهذا مبدأ الكارتينات ونشأة الحجر الصحى .

ومع أن بعض أطباء بادوا أمثال (توسينيانو) و (فيتلى دافولينيو) عدوا من المبتكرين فى الأمراض المعدية فان أب هذا العلم كان دون شك (چيرولامو فراكاستورو) [1] (١٤٧٨ ــ ١٥٥٣) وقد عاصر فى الجـامعة نفسـها العـالم الفـلكى (كوبرنيكوس) . وقد اشتهر فراكاستورو بقصيدته [2] التى نشرت فى فيرونا سنة ١٥٣٠ . وهى قصيدة تروى مغامرات شاب اسمه (سفيلوس) أصيب بالزهرى ، وقد عدت من آيات الأدب بالاضافة الى أنها تشمل وصـفا كاملا لمظاهر الزهرى ولعلاجه بالزئبق والجاوى . وقد طبعت منها طبعات عديدة وظلت متداولة حتى بعد ٢٠٠ سنة من ظهورها ، ومما أضاف الى شهرة تلك القصـيدة أن المرض سمى فيما بعـد باللغات الغـربية (سيفليس) نسبة الى بطلها سفيلوس .

ولكن فراكاستورو وضع مؤلفا آخر يفوق تلك القصيدة أهمية وهو : (عن العدوى والأمراض المعدية) [3] وهو الذى ظهر سنة ١٥٤٦ فى البندقية وحوى أول دراسة علمية للأمراض الوبائية ، وقسم وسائل العدوى الى ثلاث المعروفة اليوم : العدوى المباشرة ، والعدوى عن طريق المنقولات (وهو أول

Girolamo Fracastor. (١)

Syphilis sive morbus gallicus. (٢)

De contagione et Contagionis morbis. (٣)

من ابتكر لفظة بهذا المعنى [1] ، والعدوى عن مسافة ، وصور انتشار تلك الأمراض على أنه يتم عن طريق جسيمات أسماها بذور [2] ، قال انها تمتاز بخاصة التولد السريع وتنتقل عن طريق النفس ، وقد درس أيضا السل وأكد أنه متعـد ، وأنه يمكنه الانتقال عن طريق فرش الأسرة الملوث .

وفى الوقت نفســه على وجه التقريب بدأت سـلسلة من التطورات والأحداث انتهت الى الكشف عن الدورة الدموية وبدأت هـذه السلسلة بأهم تقدم حققته بادوا ، كان الخطوة الفاصـلة فى هذا التسلسل ، ألا وهو نشـأة علم التشريح الوصفى .

فقد صرح البابا سكستوس الرابع (سنة ١٤٧١ — ١٤٨٤) بتشريح الجسم الآدمى ، وفى سنة ١٤٩٣ ظهـر مؤلف العالم (بندتى) الذى ألح فيه على ضرورة التخلص من الاعتماد على الجلادين فى الحصول على أجساد الموتى . وهو الذى بنى أول مدرج للتشريح وجعـله بشكل يسمح بتشييده وفكه عنـد اللزوم .

ومع ذلك فان عملية التشريح كانت صعبة الأجزاء ولم يكن من المتيسر تكرارها عنـد الحاجة حتى فى عصر عالم التشريح الكبير أندريا فيزاليوس الذى تولى كرسى التشريح فى بادوا سنة ١٥٣٧ ، وهو أول من استبدل فى دروسه الوصف الأمين

---

(١) Fomites.

(٢) Seminaria.

للتشريحات التى أجراها بأقوال جالينوس والقدماء وتلاوة مؤلفاتهم المليئة بالأخطاء ، فكان مؤلفه نقطة تحول فى نمو علم التشريح وربما فى الطب قاطبة ، وكان فن الرسم قد وصل فى ايطاليا الى أعلى المستويات فى هذا العهد الذى شهد فطاحل الفن أمثال مانتينيا وريشيو ودوناتلو ، فكلف فيزاليوس مواطنه جان ستفان كالكار تلميذ تيسيانو بتزيين كتابه بالرسومات التشريحية اللازمة ، فجعل منه هذا المفتن تحفة فنية بالاضافة الى كونه مؤلفا ذا قيمة علمية فائقة .

ولا أدل على سعة تفكير جامعة بادوا فى هذا الوقت من أن فيزاليوس ، أحد أساتذتها ، كان غريبا ، ومع ذلك فقد دأب على أن يعترف دائما بما يدين به لمدينة بادوا التى أسماها العاهلة الوحيدة للعبقرية العليا . تلاه فى هذا الكرسى ريالدو كولومبو (١٥١٠ ــ ١٥٩٩) وهو أول من وصف الدورة الدموية فى الرئة من الايطاليين وكان قد سبقه الى هذا ببضع سنوات الاسبانى ميجيل سرفتوس الذى قرر فى مؤلفه اللاهوتى (اعادة المسيحية) [1] أن الدم يمر من القلب الأيمن الى الرئة ومنها الى القلب الأيسر .

تبع كولومبو جبرييلى فالوبيو (١٥٢٣ ــ ١٥٦٢) وتلميذه جيرولامو فابريزيو دى أكوا بنديتتى (١٥٣٧ ــ ١٦١٩) والأول هو مستكشف أبواق الرحم ومعالم تشريحية أخرى ،

---

(١) Christianismi restitutio.

والثانى كان أستاذ هارفى وكتب أول مؤلف فى علم الأجنة[1] (١٦٠٠ م فى البندقية) ودراسة مفصلة لصمامات الأوردة[2] (١٦٠٣ م فى بادوا) لا بد من أن أفاد منها هارفى عندما كون نظريته فى الدورة الدموية العامة اذ شيدها على حجج قويه ، منها وجود تلك الصمامات فى الأوردة التى لا تسمح بمرور الدم الا فى اتجاه واحد .

الآن ، وقد استعرضنا تاريخ الجامعات الايطالية وهى أول جامعات قامت فى الغرب ، لنا أن نتساءل عن مدى استقلالها علميا عمن سبقها أو مدى تبعيتها لها ، لعلنا نصل الى حل مشكلة اختلف المؤرخون الطبيون فيها وهى : هل كان لابن النفيس أثر فى وصف الدورة الدموية فى ايطاليا وانجلترا فى عهد النهضة ؟

---

(١) De formato foetu (٢) De venarum ostiolis

الباب الثامن

مصير أقوال ابن النفيس

هل نسيت أم كان لها شأن فى وصف هارفى للدورة الدموية

لقد أسلفنا أن نظرية جالينوس ظلت مسيطرة على الفكر الطبى حتى عهد النهضة الغربية فى القرن السابع عشر ، وأومأنا الى أنه لم يعارضها أحد عدا ابن النفيس فى القاهرة فى القرن الثانى عشر الميلادى . وقد زعم أن تعاليم العالم العربى ظلت منسية الى ما قبل ثلاثين سنة ، وذلك عندما قدر لها البعث بفضل التطاوى ، غير أن هناك ما يدل على أن هذه الأقوال لم تنس فى الشرق ولم تغفل فى الغرب .

أما فى البلاد العربية فانه من الغريب بمكان أن ينسى طبيب نال ما ناله ابن النفيس من الصيت الذائع والتكريم المبجل . وقد يكون نتيجة لتعليمه أن يقول أبو الفرج بن القف (١٢٣٣ — ١٢٨٦ م) فى ثانى مقالة من الفصل الثانى عشر من كتابه « العمدة فى صناعة الجراحة » : « والشرايين منها لطيف الدم وبخاريته ، وذلك فى المسام المفضية من أحدها الى الآخر الخفية عن الحس » .

وهناك دليل ثان على بقاء تعاليم ابن النفيس حية فى الشرق ، وتسللها منه الى الغرب ، وهذا الدليل ورد فى مخطوط عربى يرجع

الى القرن السابع عشر ، موجود فى المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٥٧٧٦ ، حيث عثر عليه عبد الكريم شحادة (٣٣) . غير أن هذا المخطوط تنقصه — للأسف — صفحاته الأولى وصفحاته الختامية ولذا أمسى من المتعذر معرفة عنوانه أو اسم مؤلفه ، وهو تعليق على قانون ابن سينا يحمل فى ثناياه اعجابا بالغا بابن النفيس الذى يلقبه بالقرشى ويبسط نظريته عن الدورة الدموية فى الرئة فى عدة صفحات ، ذاكرا أولا أقوال ابن سينا ومعقبا بقوله : « ولكن القرشى يقول كذا وكذا » .

وفى أوروبا أيضا ما يدل على أن الغرب لم يجهل ابن النفيس وان تجاهله . ففى سنة ١٥٤٧ وفى البندقية نشر طبيب ايطالى اسمه ألباجو ، ترجمة لاتينية لأجزاء كثيرة من شرح تشريح القانون (٥٤) ، وقد عاش هذا الطبيب حينا من الدهر فى الشرق الاسلامى حيث ذهب خصيصا لدراسة اللغة وللاطلاع على النصوص الطبية العربية فى أصولها وبخاصة مؤلفات ابن سينا .

وما هى الا ست سنوات بعد ظهور ترجمة ألباجو حتى ظهر أول ثلاثة مؤلفات لثلاثة من العلماء تحدثوا — الواحد تلو الآخر — عن دورة الدم فى الرئة . وأول هؤلاء العلماء هو ميجيل سرفتوس الاسبانى الأصل . وتاريخ حياة هذا العالم يمثل الحياة المليئة بالمغامرات التى كان يعيشها العلماء فى الغرب فى عصر النهضة ، مع ما فيها من قيود يتعرض من يحاول التخلص منها لأجسم الأخطار .

ولد سرفتوس فى مدينة فيلانوفا دى سيجينا فى ولاية

أراجون بأسبانيا (١٥١١ م) وقرأ اللاهوت فى سراقسطة ، ثم ذهب الى تولوز بفرنسا حيث درس التوراة دراسة دقيقة . وكان من دواعى استغرابه فى خلالها ما تصور من أن عقائد الكنيسة تناقضها فى مواضع كثيرة . وفى المرحلة التالية من حياته الراحلة نراه فى بازل بسويسرا يحاول حمل اللاهوتيين على انكار سر الثالوث . وعندما أخفق ، وضع آراءه فى مؤلفين أرغم عقب ظهورهما على مغادرة سويسرا اذ زعموا أنه جنح فيهما الى الالحاد . ثم انتحل — هروبا من العقاب المحقق — اسم فيلانوفانوس وعاش فى ليون بفرنسا ، وفى هذه المدينة اهتم بالطب وظاهر رأى شامبييه القائل بأن مرض الزهرى من غضب الله . ثم ذهب الى باريس حيث عمل — بعد فيزاليوس — مساعد الأستاذ (دالدرناخ) ، الأستاذ بكلية الطب ، فى اجراء صفاته التشريحية . وكتب وهو فى باريس مؤلفا هاجم فيه استعمال الأشربة فى علاج الأمراض ، وهو استعمال نقل عن العرب ، وكان شائعا فى ذلك الوقت . وهذا المؤلف يظهر سرفتوس بمظهر العالم المعنى بالطب ، وان كان ركز جل اهتمامه على قراءة النصوص وبخاصة كتابات جالينوس . ووضع مؤلفا آخر يهيب فيه بالمحاكم أن تستطلع النجوم قبل اصدار أحكامها . وما لبث بسبب هذا الكتاب أن طرد من جامعة باريس ومن هذه المدينة كذلك . ثم نجده بعد هذا ينتحل لقب الدكتور دون حق (وهو لم ينل قط درجة الدكتوراه) ، ويمارس الطب ، ثم عاد الى دراساته اللاهوتية وحاول أن يقنع بمعتقداته (كالفين)

صاحب المذهب الكالفنست القائل بأن الخلاص يكون بنعمة الله لا بالأعمال وأمام مدينة جنيف وحاكمها — غير أن المحاولة لم تفلح وفسدت العلاقات بينهما . فتحول نحو التأليف ووضع فى سنة ١٥٥٢ كتابا ضخما اسمه بالعربية « اعادة المسيحية » [١] وطبعه سرًّا فى فيينا ، وكان فى نيته توزيع كتابه هذا فى ربيع سنة ١٥٥٣ الا أن (كالفين) كشف لأهل فيينا عن شخصيته الحقيقية التى قنّعها بانتحال اسم فيلانوفانوس لمنتحل ، وهنا لاذ بالهرب الى ايطاليا ، وما عتم أن أخطأ فى خطته اذ رأى أن يعرج على جنيف ، وهناك كشف أمره وحكم عليه بالموت حرقا . ونفذ الحكم فى يوم ٢٧ أكتوبر سنة ١٥٥٣ ، وحرقت معه كل النسخ التى وجدت من مؤلفه ، ولم يبق من مؤلفه هذا الا ثلاث نسخ .

وقد رأى أطباء جنيف ابداء أسفهم للطريقة الوحشية التى عذب بها فأقاموا له (جبرا لخاطره) فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٠٣ لوحة من الرخام بالقرب من المستشفى الكانتونال ، سجلوا عليها بالفرنسية اشادتهم بحرية العقيدة ، وأسفهم لتعذيب سرفتوس ، مع احترامهم لكالفين والتماس العذر له ، لأن عمله ذلك كان من الأخطاء الشائعة فى عصره .

وقد عُدّ مؤلف سرفتوس هذا مؤلفا لاهوتيا وأغفل ما ورد فيه من الملاحظات الطبية ، الى أن أشار طبيب بلندن الى ما جاء به فى وصف الدورة الرئوية (٦١) ، وذاع صيت سرفتوس من

---

(١) Christianismi Restitutio.

جراء الصفحات الست من هذا المجلد الذى يربى عدد صفحاته على السبعمائة ، وهى الصفحات التى وصف بها مرور الدم من الشريان الرئوى الى الوريد الرئوى عن طـريق الرئة ، وكان متنبهًا لما فى هذا القول من تجديد اذ قال بصدده : ان هــذه الحقيقة لم تكن معروفة على وجه العموم وان جالينوس كان يجهلها .

الا أن هذا الكاتب اللاهوتى بنى نظـريته على أن روح الانسان ليست غير قبس من روح الله فى الكون ، وأن هــذه الروح مقرها ومركزها ـــ حسبما ورد فى التوراة ـــ ليس فى المخ ولا فى القلب وانما فى الدم . ويتبع هذا ـــ فى رأيه ـــ أن الروح ينبغى لها أن تصل الى الدم ، ولا منفذ لها الا عن طريق النفس الذى يدخل الرئة ، حيث تختلط الروح بالدم قبل أن يسرى ما ينجم عن هذا الخليط الى شتى أجزاء الجسم ، سريانا مستمرا لتجديد تشبع الجسم بالروح الالهية تجديدا متواصلا .

ولنلاحظ هنا أنه يقع على كواهل القــائلين بتمام استقلال سرفتوس فى تفكيره تفسير أمرين : أولهما قوله ان هذه الحقيقة ـــ أى الدورة ـــ ليست معروفة على وجه العموم ، فهل معنى هذا أنها كانت معروفة لدى القليلين وأنه لم يعد نفسه مستنبطا لهذه الحقيقة بمفرده ؟ وثانى الأمرين أن صلابة حاجز القلب لم تكن مجهولة قبل سرفتوس ولا قبل فيزاليوس الذى سبقه فى التشريح فى باريس ، فقد قال فيزاليوس ، وهو من كبار المشرحين فى التاريخ ، فى شىء من التهكم : « اننا نتعجب لفعل القادر على

كل شيء ، اننا نتعجب لهذا الفعل الذى يتسلل الدم بموجبه من البطين الأيمن الى البطين الأيسر عبر ممرات لا تبصرها العيون ».

وقد زعم بعض الأسبانيين أن مواطنهم برنارد مونتانا دى مونسرات سبق هارفى الى كشف الدورة ، الا أن أومالسى (٦٢) درس مؤلفه فى تشريح الانسان الذى نشر بمدينة فلادوليد فى سنة ١٥٥١ ، والذى كان أول مؤلف فى التشريح وضع بالاسبانية ، وخلص الى أن هذا الكاتب لم يعرف شيئا عن الدورة الدموية وأنه نقل رسوم فيزاليوس دون أن يذكر مصدرها .

واننا لا نتعجب من عدم ذكر سرفتوس فى أى مؤلف من مؤلفات الكتّاب فى الدورة الدموية الذين لحقوا به ، اذ أنه كان من غير المعقول الاستناد الى كِتاب حرق مع مؤلفه . أضف الى هذا أنه لم يستند الى حقائق تشريحية يمكن التأكد من صحتها ، وانما بنى أقواله على نظرية عدّتها الكنيسة كفرا وهرطقة .

أما ريالدوا كولومبو (الذى ولد فى سنة ١٥١٦) فقد درس بالبندقية وبادوا بايطاليا وعيّن أستاذا للجراحة فى بادوا فى سنة ١٥٤٠ ، الا أن هذا الكرسى آل الى فيزاليوس وعندئذ عيّن كولومبو نائبا له وكلّف بتدريس التشريح . ويبدو أنه كان يجهل اللغات الكلاسيية (أى القديمة كاليونانية واللاتينية) ، فقد وصفه فيزاليوس بازدراء بـ : « أنه فى الأدب جاهل ، وتعلم شيئا من التشريح من عملى » . ثم درّس كولومبو التشريح فى بيزا بايطاليا (سنة ١٥٤٦) ، وبعد هذا بسنتين انتقل الى روما

حيث توفى فى سنة ١٥٥٩ . وقد نشر مؤلفه (عن التشريح) [١] فى السنة نفسها ، بعد وفاته ، وجاء فيه هذا النص : « يوجد بين البطينين حاجز زعموا أن دم البطين الأيمن يمر عبره الى البطين الأيسر ، ولكنهم أخطأوا خطأ جسيما اذ أن الدم يحمله الشريان الرئوى الى الرئتين ، من حيث يمر مع الهواء عن طريق الوريد الرئوى الى البطين الأيسر » .

ومن ثم فقد وصف كولومبو الدورة الرئوية وصفا صحيحا . ويلاحظ أنه كان دائب التشريح . ويرجح أن يكون قد كوّن اعتقاده هذا ، أو أن يكون قد تحقق منه ، عن طريق ملاحظاته على الجثث .

وثالث هؤلاء الكتاب هو أندريا سيزالبينو : ولد فى أريزّو من أعمال توسكانيا بايطاليا ، وتخرج فى بيزا فى سنة ١٥٥١ ، ثم درّس فى هذه المدينة قبل أن يعيّن أستاذا لعلم النبات وأمينا للحديقة النباتية . وفى سنة ١٥٩٢ اختاره البابا كليمنت الثامن ليكون طبيبه الخاص وأستاذا فى جامعة روما . وتوفى فى سنة ١٦٠٣ عن ٨٤ سنة . وكان عالما مولعا بالمسائل الفلسفية واللاهوتية . وقد وردت فى مؤلفه (مواضيع المشّائين) [٢] الذى نشر فى سنة ١٥٧١ فى البندقية بعض عبارات تدعو الى التأمل ولا سيما اذا قورنت بمثيلاتها فى مؤلف هارفى الذى ظهر فى سنة ١٦٢٢ أى بعده باحدى وخمسين سنة واليك بعضها : « ان الدم

(١) De re anatomica.

(٢) Questionum peripateticarum.

توصله الأوردة الى القلب ، ثم تحمله الشرايين الى كل أجزاء الجسم ... ان الأوردة اذا ربطت تمتلىء تحت الرباط ، ولا تمتلىء فوقه ، وهذا أمر معروف لهؤلاء الذين يفصدون المرضى » .
ولقد كان سيزالبينو أول من استعمل لفظة الدورة [1] من بين من صنفوا فى الطب .

الطرق التى انسرب منها الطب العربى الى الغرب :

أما الطرق التى سلكتها العلوم العربية فى تسللها الى ايطاليا أو الى سرفتوس فانها كانت كثيرة واسعة مطروقة ، احداها طريق جزيرة صقلية ومدرسة سالرنو فى جنوب ايطاليا .

وكان الطب فى الغرب فى خلال القرون الوسطى محصورا فى الأديرة ومنطبعا بالصلابة التى تجمد فيها التفكير الدينى فى ذلك الوقت ، وبالمدرسية التى سادت الحقول التعليمية ، وبخاصة بعد سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية تحت ضربات القبائل الشمالية ، التى هدمت الحضارة الاغريقية ــ الرومانية التى كانت أوروبا تمتاز بها ، ولم تترك لها أثرا قائما .

ودامت حال الطب على هذا النحو حتى حرّم مجمع أساقفة كلرمونت فى سنة ١١٣٠ م ثم لطران فى سنة ١١٣٩ م وتور فى سنة ١١٦٣ م على القساوسة مزاولة الطب ، فأصبحت هذه المهنة حرفة علمانية . وقد قارن هذا التغيير ظهور أول جامعات

---

(١) Circulation

على وجه التقريب ، فانحدر الطب الى اتجاهات جديدة رسمها الى حد كبير ما اكتسبه من الشرق .

وقد بدأ الاهتمام بالطب بمعناه الجديد فى مدينة سالرنو فى جنوب ايطاليا ، حيث التقت بحضارة روما حضارة الاغريق التى كانت قائمة ولها آثار عظيمة فى جارتها (بايستوم) ، وقد حمى سالرنو بُعدها عن الشمال وهو الذى حفظها من الحروب ومن هجوم قبائل الشماليين المتكرر الذى لم يصلها الا مصدوداً بفضل هذا البعد ، ومن جهة أخرى دامت مفتوحة لتأثرات بلاد البحر الأبيض الثقافية بفضل قربها منها ، وقد نوهت بهذه التأثيرات المختلفة أسطورة منشئيها وهم ، حسب هذه الرواية ، أربعة : ايطالى واغريقى ومسلم ويهودى ، أسماؤهم بونتوس وسالرنوس وأديلا وهيلينيوس .

وقد فخرت سالرنو بمستشفى منذ القرن السابع الميلادى ، وأنشئت مدرسة الطب فيها قبل سنة ٨٤٦ م ، وذاع صيت أطبائها العلمانيين منذ نهاية القرن التاسع ، فنرى فى القرن العاشر الملوك يستدعون أطباءها والأعيان يترددون عليها للعلاج . ولم تختلف عن بلاد أوروبا الأخرى من حيث النضال بين أهل الدين وغيرهم ، وقد انتهى بانتقال الأول الى جبل كاسينو فى الشمال ، تاركين العلمانيين أحرارا فى اقامة مدرستهم على أسس مستقلة وفى فتحها للجميع . وما فتئت شهرتها تزداد حتى القرن الثانى عشر .

الا أن طب سالرنو ظل طبا اغريقيا لاتينيـا حتى القرن الحادى عشر وتبلور فى مؤلف (نظام الصحة) [1] لكاتب مجهول أهداه الى ملك من ملوك انجلترا لا نعرف اسمه . وقد عدّ هذا الكتاب توراة الأطباء حتى نهاية النهضة ، وكان أحد النصوص الأساسية فى المقررات الدراسـية ، ونشر أكثر من مائتى مرة وترجم أكثر من عشرين ترجمة باضافات مطردة .

أما طب العرب وعلمهم فان تفوذه كان محسوسا منذ القرن العاشر فى صقلية جنوب سالرنو حيث عنى الملوك النورمانديون أمثال فريدريك الثانى بتشجيع علماء العرب كما عنوا بالحث على ترجمة مؤلفاتهم . ولكنه اقتحم سالرنو فى القرن التالى فحقن فيها دما جديدا وأنعشها بحياة ثانية . وأول المسئولين عن هذا التجـديد طبيب مسيحى من قرطاجنة سـمّى قسطنطين الافريقى (١٠١٥ ــ ١٠٨٧ م) ، ألم الماما تاما بلغات الشرق وطاف بمصر وسوريا والعـراق والهند والحبشة وأحاط فيهـا بعلومها ، ثم اتهم بمزاولة السحر فهرب الى سالرنو حيث اتخذ سريعا محلا مرموقا بين الأسـاتذة والممارسين على السـواء ، وأصبح أمين دوق أبوليا ، وانتهى بالرهبنة فى دير جبل كاسينو .

ويعد قسطنطين بحق رائد الطب العربى فى أوروبا ، فقد ترجم أبقـراط وجالينوس والمجوسى وغيرهم وكثيرا ما ترجم دون تمييز ، وقد يؤخذ عليه أنه انتحل الفضل فى وضع كتبه دون

---

(١) Regimen Sanitatis.

حق اذ أنه لم يذكر مصادره ونسبها لنفسه ، ومهما يكن من أمر فقد كان لمؤلفاته ، وان كان ينقصها أى ابتكار ، وقع كبير ونفوذ دام طيلة من الزمن .

وقد رعى الحكام هذه المدرسة بعنايتهم ، وأدخل فيها تشريح الجثث أول مرة ، وسنت القوانين لتنظيم هذه العملية ، وانتشر اشعاع سالرنو لا بمؤلفات علمائها فحسب ، وانما أيضا بفضل تلاميذها الذين نقلوا منها العلم الى سائر الجامعات ، فقد غادرها جمع منهم حوالى سنة ١١٦٠ م وذهبوا الى جنوب فرنسا وبخاصة الى مونبلييه ، التى تعد وريثة سالرنو والتى ظلت فيها تعاليم أبقراط وتقاليد التحرر من سلطة الأساقفة وعدم التقيد بالنظم المدرسية حية . ومن هؤلاء العلماء بيير جيل دى كوربى الذى نقل تعاليمها الى مونبلييه ثم الى باريس حيث أصبح طبيبا خاصا للملك فيليب أوجست ، واستحق تسمية رسول سالرنو عبر الألب .

الا أن مدرسة سالرنو اضمحلت بعد سنة ١٤٠٠ م واستمرت على شكل مجرد اسم حتى حلها نابليون فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٨١١م وقد أشار البعض أخيرا الى سير الطب السالرنى والطب العربى متوازيين فى العلو والانخفاض والى انحلال مدرسة سالرنو عندما بدأ سير العلوم فى البلاد العربية يتوقف ، الأمر الذى يدل على ارتكاز الأول على الثانى .

ومدرسة سالرنو — وان كانت لم تبتكر جديدا — لها فضل عظيم على الطب أولا لكونها القنطرة التى أوصلت الشرق

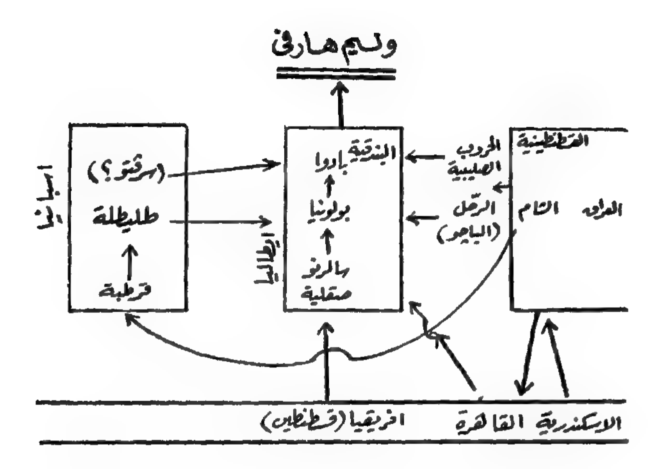
بالغرب ، وثانيا لبعثها طبا مستقلا عن القيــود اللاهوتية أو العنصرية أو الفلسفية ، غير مبال الا بالخبرة السريرية ، ظهر أثره فى طب مونبلييه فى جنوب فرنسا وبالرمو وبولونيا وبادوا فى ايطاليا .

وقد عاصر ذروة مجدها ظاهرتان متناقضتان : أولاهما ظهور أولى الجامعات فى أوروبا وثانيتهما بناء قواعد التفكير المجرد على أسس لاهوتية كان لها أخطر النفوذ حتى آخر القرون الوســطى ، وقد تحارب الاتجاهان وتخبطت أوروبا بينهما ، وحلت كل جامعة المشاكل التى نتجت عن هذا التعثر بطريقتها الخاصة ، فمثلا ســاد التزمت فى باريس وتحررت مونبلييــه وبادوا ، ولا غرو فان هذا التحــرر هو الذى سمح لبادوا بالسيطرة على الطب فى العصرين الخامس عشر والسادس عشر .

والطريق الثانية التى سلكتها العلوم العربية الى أوروبا هى الأندلس واسبانيا حيث نشــأ سرفتوس ، ومن المعــروف أن المترجمين من العربية الى اللاتينية نشطوا فى قرطبة وبخاصة فى طليطلة ، حيث قامت دور الترجمة بنشاط محمود فى نقل كتب العرب ، اما مباشرة أو عن طريق مؤلفات مدرسة سالرنو .

والطريق الثالثة هى الطــريق المباشرة التى طرقها ألباجو عندما كرس عدة سنين من حياته لترجمة الأصول العربية ، وقد تمثلت أيضا فى اقتناء أغنياء النهضة الايطالية المخطوطات الشرقية.

ويمكن تصوير الطرق التى وصل عن طريقها العلم القديم الى أوروبا فى الرسم الآتى :



وقد أشار الدكتور ألبير زكى اسكندر فى مكاتبة خاصة الى عثوره على أدلة جديدة تزيدنا يقينا بوجود تسلسل متصل بين ابن النفيس وألباجو ، ثم بين هذا الأخير وعلماء الغرب ، وتوضح العلاقة بين ألباجو وبين ابن النفيس ومن لحق به . ونأمل أن ينشر نتيجة بحوثه عن قريب لتضىء هذه الصفحة من تاريخ العرب التى ما تزال قاتمة ، وان كنا شـاعرين بمجدها ، ولتضيف برهانا على البراهين الدالة على أصالة الفكر العربى ، ان كان البرهان فى حاجة الى هذه الاضافة .

ولا محل للشك فى أن هارفى ــ وهو الذى وصف الدورة الدموية الكاملة فى مؤلفه : « دراسة تشريحية تحليلية لحركة

القلب والدم فى الحيوان » (٦٠) ، الذى ظهـر فى سنة ١٦٢٨ والذى له ــ فى عيون الجميع ــ شرف الكشف عن هذا السر الخطير من أسرار وظائف الجسم . نقول لا مجال للشك فى أنه اطلع على مؤلفات العلماء الايطاليين ، اذ أنه تخرج فى بادوا حيث تتلمذ على بعض أولئك الايطاليين . ولئن صح جـدلا أن كتاب سرفتوس لم يصل الى هارفى (اذ أن أغلب نسخه حرقت معـه فى جنيف) فان كولومبو الذى كتب فى وظيفة الصمامات (وهى من دعائم نظرية هارفى) كان أستاذا فى تلك الجامعة ، كما أن سيزلبينو كان تلميذ كولومبو ، وهو الذى أجرى تجارب ربط الأوردة التى تماثل تجارب هارفى ، وأكد من جديد دور الصمامات ، وابتدع استعمال لفظة (الدورة) لحركة الدم .

ويمكن القول بأن فكرة الدورة حامت فى أذن العلماء ردحا من الزمن قبـل هارفى . اذ أنها ذكرت فى مؤلفـات جوان دى فالفـردى [١] (١٥٥٦) ، وكارلـو روينى [٢] (١٥٩٨) ، وأوستاكيو روديو [٣] (١٦٠٠) فى مدينة بادوا ذاتها ، حتى أن جاسبار أزيلى [٤] كتب فى سنة ١٦٢٧ ، أى قبل ظهور مؤلف هارفى بسنة : « لا يبدو منافيا للعقل أن نتصور أن الدم الواصل

(١) Juan de Valverde.

(٢) Carlo Ruini.

(٣) Eustachio Rudio.

(٤) Gaspard Aselli

الى الرئة عن طريق الوريد الشريانى يختلط فيها بالهواء ثم يعود الى البطين عن طريق الشريان الوريدى .

ولذا فان الكشف عن حركة الدم الدورية لم يكن ثمرة فكر واحد — وهذا شأن معظم الكشوف — وانما ظهر نتيجة لجمع معلومات كثيرة مبعثرة ، قديمة وحديثة ، ودمجها بعضها ببعض من جديد . هذا بعد أن أضاف اليها الايطاليون — وبعدهم هارفى — نتائج تجارب بسيطة ومعقولة وتأملات منطقية مسلسلة مبنية على التجربة والحساب ، فنجم عن ذلك بناء متكامل راسخ يشمل الدورتين : الصغيرة وهى التى تجرى فى الرئة ، والكبيرة وهى التى تتم فى بقية الجسم . وبذلك تحققت معرفة وظيفة من أهم وظائف الجسم ووصفت وصفا نهائيا ، كما فتح الباب لنظام تجريبى ، يتيح تطبيقه الكشف عن وظائف بقية أعضاء الجسم .

ولنا أن نستغرب التناقض بين سكوت هارفى عن هؤلاء الذين سبقوه وبين ما عهد فيه من النزاهة والصدق . غير أن الأمانة العلمية لم تكن من الصفات المرعية فى ذلك الجيل . وقد ظهر أخيرا مثل آخر لاهمال هارفى ذكر مصادره . فقد وضع فى سنة ١٦٥١ مؤلفا فى « توالد الحيوانات » [١] وكان قد سبقه الى بعض ما جاء به ماركوس مارشي أوف كرونولاند [٢] العالم

---

(١) De generatione.

(٢) Marcus Marci of Kronland.

للبوهيمى الذى اشتهر بلقب أبقــراط براج ، فى كتــاب نشره سـنة ١٦٣٥ ، حيث سرد نظرية فى التوالد تشــابه فى كثــير من تفاصيلها نظرية هارفى ، أما هارفى فانه لم يذكر ماركوس مارشى مع أن هذا العالم أكد فى سنة ١٦٦٢ فى مؤلفه « العودة الى الفلسفة القديمة » [١] أن هارفى اطلع على مؤلفه وأبدى خيبة أمله لعدم ذكره ، وأضاف قائلا « انى سلمت هذا الكتاب الى هارفى بيدى هنا فى براج فى أثناء حديث ودى » (٦٣) .

ولنراجع تواريخ المؤلفــات التى انتهت الى هارفى والى كتابه . لقد ظل العالم يؤمن بتعاليم جالينوس ، لاهيا (أو كذا يقال) عما كتبه ابن النفيس طيلة ثلاثة قرون ، وفجأة ــ كما قد يتفجر سدٌ ــ انبرى ثلاثة علماء يكتبون فى دورة الدم فى الرئة . واليك تلخيصا زمنيا لما فات :

. . . .

توفى ابن النفيس فى سنة ١٢٨٨ .

ترجم الباجو « شرح التشريح » فى سنة ١٥٤٧ ونقله من الشرق الى البندقية .

وضع سرفتوس مؤلفه فى سنة ١٥٥٣ : اعادة المسيحية .

وضع ريالدو كولومبو مؤلفه فى سنة ١٥٥٩ فى بادوا : عن التشريح .

Philosophia vetus restituta. (١)

وضع سيزالبينو مؤلفه فى سنة ١٥٧٩ : مواضيع المشائين .

درس هارفى فى بادوا من سنة ١٥٩٧ الى ١٦٠٢ .

وضـــع هارفى مؤلفه فى سنة ١٦٢٢ : دراسة لحركة القلب والدم .

ولقد أصر المؤرخون الغربيون على القول بأن تعاليم ابن النفيس طمست فى زوايا النسيان وعلى أن سرفتوس وكلولومبو وهارفى اهتدوا الى هذا السر بمعزل عنه ، بل مستقل كل منهم عن الآخر .

وبنى مايرهوف (٢٨) ـ وبعده تمكين (٦٤) ـ رأيهما هذا على أن « شرح تشريح القـــانون » لم يترجم بتة ، وأنه وان كان سارتون (٢٧) ذكر ترجمة لجزء منه ، فان هذا الجزء خاص بالباب الخامس من القانون الذى عنى بالعقاقير ولم يتعرض للدورة الدموية . هذا بالاضافة الى عدم العثور على أى كتاب وسيط يجيز قبول فكرة التسلسل بين ابن النفيس وسرفتوس .

والى هذا فقد أضاف مايرهوف (٢٨) أن سرفتوس جاء بنقطتين لم يذكرهما ابن النفيس ، أولاهما لون الدم الشريانى الأصفر (هكذا) ، والثانية سمك جدار الشريان الرئوى الذى لا يسمح بتغذية الرئة بمفرده . وقد علق على هذا تمكين (٦٤) قائلا ان ورود برهانين اضـــافيين فى المؤلف اللاحق لا يبرران الأخذ بأنه مستقل عما سبق .

ثم ذكر تمكين نقطتين اختلف فيهما المؤلفان وهما :

الأولى : قطع ابن النفيس بعـــدم جواز مرور الدم عبر الحاجز عن طريق مسام مرئية أو غير مرئية قطعا باتا اذ قال : « ليس بينهما منفذ فان جرم القلب هناك ليس فيه منفذ ظاهر كما ظنه جماعة ، ولا منفذ غير ظاهر يصلح لنفوذ هذا الدم كما ظنه جالينــوس ، فان مســـام القلب هناك مستحصنة وجرمه غليظة » .

هذا بينما لم يعبر سرفتوس عن رأيه بالحدة نفسها اذ قال : « ان هذا الجدار الوسيط خال من الأوعية وليست له أية وظيفة ولا يليق للوصل أو للتخليق ، وان كان من المحتمل أن يقدر على بعض الافراز » . فيرى تمكين فى هـــذا الجزء الأخير من كلامه أنه قبل احتمال مرور بعض الدم عن طـــريق نوع من الافراز من الحاجز .

الثانية : يقول ابن النفيس فى شأن الطريق التى يسلكها الدم للوصـــول من الشريان الرئوى الى الـــوريد الرئوى : « ولذلك جعل بين هذين العرقين منافذ محسوسة » .

وصور سرفتوس هذا التسرب على أنه يجرى فى نوع خاص من الأوعية واصل بين الوعائين ، وهذا مثال جيد لظاهرة كثيرا ما نقابلها فى ميدان العلوم ، وهى الوصول الى استنتاج صحيح مبنى على ملاحظات خاطئة ، فقد وصل سرفتوس الى التنبؤ بوجود الأوعية الشعرية التى لم يكن الى رؤياها سبيل قبل

اختراع المجهر ، قياسا بما ظنه يحدث فى المخ ، وهو اتصال أطراف الشرايين بمبادىء الأعصاب لتوصيل الروح اليها ، وهذا فرض خاطىء .

ويرى تمكين أن الخلاف فى هاتين النقطتين يكفى لاستنتاج استقلال فكر الأحد عن الآخر . ولنا أن نقول ان القياس بالخلف ، وهو ما يستدل فيه بامتناع أحد النقيضين على تحقق الآخر ، أو البرهان السلبى المبنى على عدم وجود وثائق ايجابية ، ليست لهما قيمة حتمية فى ميدان النقاش التاريخى ، اذ أن الكثير من الوثائق اندثر ، وأن كنوز المكتبات لم ينته المنقبون من جردها ، فضلا عن قراءتها ، وها هو « شرح تشريح القانون » الذى ظل سبعة قرون مدرجا فى الفهارس ولم يقرأ .

ثم ان الخلاف فى طريقة التسرب من الشريان الرئوى الى الوريد الرئوى كان جائزا فى ذاك الوقت ، وقد ترك ابن النفيس هذه النقطة دون تحديدها بقوله انها « منافذ محسوسة » ، قد تكون أوعية شعرية توصل بينها من طرف الى طرف ، أو فتحات جانبية ، أو مسام على أى شكل يتراءى للقارىء تصورها . وهذا من الأمانة العلمية ، فقد استنتج عملية المرور ولم يكن لديه أية وسيلة للتحقق من كيفيته . أما سرفتوس فقد دفعه تفكيره الفلسفى الى فرض خاطىء وصله الى استنتاج صح صدفة .

والمهم فى هذا الشأن هو استقراء وجوب وجود وصلة بين الشرايين والأوردة ، وهو أمر ذكره هيروفيلوس فى الاسكندرية فى القرن الثالث ق.م ـــ كما أسلفنا ـــ وأشار اليه المجوسى فى «كامل الصناعة فى الطب » حين قال : « ان العرق الضارب (أى الشريان) اذا اقطع استفرغ منـــه جميع الدم الذى فى العروق غير الضوارب (أى الأوردة) » . وهذا لا يمكن تفسيره الا بافتراض منافذ بين العروق الضاربة وغيرها .

أما عن النبذة التى جاءت فى مؤلف سرفتوس والتى يقبل فيها احتمال افراز بعض الدم فى الحاجز ، فان تعبيرها ضعيف لدرجة تجعلنا نذهب الى أن الحافز اليهـــا اما أن يكون عدم التأكد التام واما أن يكون التحفز احتراما لمنزلة جالينوس ، أو نتيجة لبواق من تعاليم هذا العالم علقت فى ذهن سرفتوس ، كما علقت نظريات جالينوس الخاصة بالروح فى ذهن ابن النفيس نفسه . والمهم أن الخلاف لم يتناول صلب النظرية ، حيث أن الأسبانى سردها ـــ على حسب قول مايرهوف ذاته ـــ بألفاظ تكاد تكون منقولة نقلا عن كتابات ابن النفيس .

ومما يؤسف له أن أغلب الكتّاب فى تاريخ الطب فى الغرب تأثروا بتفكير مايرهوف وتمكين ، فحذوا حذوهم فى انكار أى تسلسل بين ابن النفيس وغربيى عهد النهضـــة . فاليك رالف ميجور (٦٧) ، بعد أن أوفى ابن النفيس حقه فى الكشف الأول عن دورة الدم فى الرئة ، ينتهى قائلا ان هذه الملاحظة الجديرة بالاعتبار ظلت مجهولة للعالم الغربى سبعة قرون . ومثله مثل

الفرنسيين كورى وباريتى فى مؤلفهما عن تاريخ الطب (٦٥) والكاتب الفنزويلى سزنيروس (٦٦) وغيرهم ، ولعل اتجاه الريح بدأ يتحول فان هيار (٦٨) يقول معلقا على ما جاء تحت قلم أرنالدز ، بالجزء الأول من كتاب التاريخ العام للعلوم : « يبدو أن أرنالدز أخذ بآراء مايرهوف ، وهو الذى قرر أن استكشاف ابن النفيس لم يكن له أى أثر على الطب الغربى ، متجاهلا بذلك الترجمات اللاتينية لكتاباته ، ولكن أصحاب الرأى حاليا أكثر تحفظا فى هذه النقطة » .

الباب التاسع

فلسفة ابن النفيس الطبية

للآن ، وقد ركزنا البحث فى رقعة ضيقة من الحقول الواسعة التى عنى بها ابن النفيس ، وهى التى غرس فيها بذرة التمرد والثورة ضد جالينوس (الفاضل) وابن سـينا (الرئيس) ، فلنوسع ميدان كشفنا لعلنا نستبين شيئا من فلسفته الطبية فى كتاباته الأخرى أو فيما لم نعرض له من « تشريح القانون » .

ولئن لم يتح لنا الاطلاع على مصنفاته الأخرى فاتنا ، من حسن الحظ ، قد عثرنا على عبارات كثيرة من (موجز القانون) كما وردت فى كتاب (شرح الموجز) لجمال الدين الأقسرائى (المتوفى فى سنة ١٣٩٨ م) (٦٩) .

يبدأ الأقسرائى بشرح الأسباب التى دعته الى وضع هذا الكتاب ، يقول :

« وكان من جملة ما قرأته عليه (أى على الطب) موجز القانون للحكيم المحقق ابن الحسن القرشى المعروف بابن النفيس فأردت أن أشرحه لما فيه من المشكلات ... فألفت هذا الكتاب وسميته بحل الموجز لأنه يحل ما فيه من المشكل والملغز » .

ثم بدأ يذكر أقوال ابن النفيس الواحد تلو الآخر ، مصدرا

كل قول منها بعبارة (قال المؤلف) ، ولم يفته بعد هذا أن يضيف شرحه : (وأقول ...) .

ونرى ، من أول جملة فى الكتاب ، النهج الفلسفى الذى سلكه ابن النفيس واضحا ، وهو يحاكى طريقة ابن سينا والأطباء لفلاسفة الآخرين فى ميلهم الى التقسيم المنطقى والتبويب التعقلى ، الا أنه قسم مصنفه الى أربعة فنون ، لا خمسة كما فعل ابن سينا فى القانون ، وهذا بأن ضم الأدوية والأغذية المفردة الى الأدوية والأغذية المركبة ووضعها فى فن واحد بدلا عن فنين كما جاءت فى القانون . ثم قسم العلم بالطب الى أربعة أقسام وذكرها ، ورتب كل جزء وقسّمه ، وتناول أركان الطبيعة فقال انها أربعة ، وهذا يطابق تقسيم الفلاسفة الذين سبقوه منذ عهد الاغريق ، وربط الأركان بالأمزجة ، ووصف الأمزجة المختلفة تبعا للسن ووفقا للأعضاء ، وتدرج من هذا الى وصف الأخلاط الأربعة ، وهى من بدع أبقراط وجالينوس التى أخذ بها ابن سينا ، وأفرد لكل خلط فقرة ، ربطه فيها بركن من الأركان . ثم وصف خواص كل خلط وفوائده ، والطبيعى منه وغير الطبيعى . وعرض بعد ذلك للأعضاء فقسمها الى قسمين : المفردة ووصف طريقة تولدها بعضها من المنى والبعض الآخر يتعقد الدم اما بالحرارة أو بالبرودة ، والمركبة اما تركيبا أوليا أو ثانيا أو ثالثا أو رابعا .

وفى كل هذا لم يخرج بجديد . تدرج من هذا الى الأرواح والقوى وقال انها اما طبيعية وهى الغاذية والنامية والمولدة

والمصورة وقارنها أيضا بالكيفيات الأربع ، واما نفسانية ، وهى اما محركة أو مدركة ... الخ .

ولكى أبين طريقة تفكيره المتميزة بالمنطق والتنظيم ، ولأتيح للقارىء فرصة الحكم المستقل على هذا النص الذى قد يصعب له الاطلاع عليه ، ساجتزئه من المؤلف الذى ذكرته حرفيا . واليك هذا النص :

وقد رتبت هذا الكتاب على أربعة فنون :

الفن الأول — فى قواعد جزءى الطب أعنى علمية وعملية بقول كلى .

الفن الثانى — فى الأدوية والأغذية المفردة والمركبة .

الفن الثالث — فى الأمراض المختصة بعضو عضو وأسبابها وعلاماتها ومعالجاتها .

الفن الرابع — فى الأمراض التى لا تختص بعضو دون عضو آخر وأسبابها وعلاماتها ومعالجاتها . والتزمت فيه مراعاة المشهورة فى أمر المعالجات من الأدوية والأغذية وقوانين الاستفراغات وغيرها ، وأنا أسأل الله التوفيق والعصمة ، وألتمس من الأصدقاء أن يعفوا الزلل ويسدوا الخلل .

الفن الأول — يشتمل على جملتين : الجملة الأولى فى قواعد الجزء النظرى من الطب ويشتمل على أربعة أجزاء : الجزء الأول من أجزاء الجزء النظرى فى الأمور الطبيعية بقول كلى ، .. الطب ينقسم الى جزء نظرى والى جزء عملى وكلاهما علم ونظر ،

... والنظرى أجزاؤه أربعة : العلم بالأمور الطبيعية ، والعلم بأحوال بدن الانسان ، والعلم بالأسباب ، والعلم بالدلائل .

والأمور الطبيعية سبعة : أحدها الأركان وهى أربعة : النار وهى حارة يابسة ، والهواء وهو حار رطب ، والماء وهو بارد رطب ، والأرض وهى باردة يابسة ... وثانيها المزاج : وأقسامه تسعة معتدل ليس مشتقا من التعادل الذى هو التكافؤ وذلك لا وجود له بل من العدل فى القسمة وغير المعتدل اما مفرد وهو أربعة : حار ، وبارد ، ويابس، ورطب ، واما مركب وهو أربعة : حار يابس وحار رطب وبارد يابس وبارد رطب .

وأعدل الأمزجة مزاج الانسان ، وأعدل أصنافه سكان خط الاستواء ، ثم سكان الاقليم الرابع ، والشبان أعدل والصبيان يساوونهم فى الحرارة لكنهم أرطب فلذلك حرارتهم ألين وحرارة الشبان أحد ، والكهل والشيخ باردان يابسان ، والشيخ أرطب بالرطوبة الغريبة البالة . وأعدل الأعضاء جلد أنملة السبابة ثم جلد الأنامل الباقية ، ثم جلد الأصابع ، ثم جلد الراحة ، ثم جلد الكف ، ثم جلد اليد ، ثم الجلد مطلقا . وأحرها القلب ثم الكبد ثم اللحم . وأبردها العظم ثم الغضروف ثم الرباط ثم العصب ، ثم النخاع ثم الدماغ وأيبسها الشعر ثم العظم ثم الغضروف ثم الرباط ثم العصب ، وأرطبها السمين ثم الشحم ثم اللحم الرخو ثم الدماغ ثم النخاع . وثالثها الأخلاط ، وهى أربعة : أفضلها الدم وهو حار رطب ، فائدته تغذية البدن ، والطبيعى منه أحمر اللون لا نتن له معتدل القوام حلو وغير الطبيعى ما خالف ذلك لونا أو

رائحة أو قواما أو طعما ، ثم البلغم وهو بارد رطب ، وفائدته أن يستحيل دما اذا فقد البدن الغذاء وأن يرطب الأعضاء فلا يجففها الحركة وأن يدخل فى تغذية مثل الدماغ . والطبيعى منه ما قارب الاستحالة الى الدموية وغير الطبيعى اما من جهة الطعم كالمالح ويميل الى الحرارة ، واليبس والحامض يميل الى البرودة واليبس والمسيخ وهو خالص البرد وكثير الفجاجة والعفص ويميل الى البرودة ، واليبس واما من جهة القوام كالرقيق جدا المائى والغليظ جدا الجص والمختلف القوام الخاص والمخاطى ، ثم الصفراء وهى حارة يابسة وفائدتها تلطيف الدم وتنفيذه وأن تدخل فى تغـذية مثل الرئة وأن ينصب جزء منها الى الأمعاء فيغسلها من الثقل والبلغم اللزج ، والطبيعى منها أحمر خفيف حاد وغير الطبيعى اما لاختلاطه بالبلغم الغليظ وهى المحية أو الرقيق وهى المرة الصفراء أو بالسوداء الاحتراقية وهى الصفراء المحـترقة أو لاحتراقه فى نفسـه وهو الكراثى والزنجارى والاحتراق فى الزنجارى أقوى فلذلك يشـبه السموم ، ثم السوداء وهى باردة يابسة ، وفائدتها افادة الدم غلظا ومتانة وأن تدخل فى تغذية مثل العظام وأن تنصب جزء منها الى فم المعدة فتنبه على الجوع وتحرك الشهوة ، والطبيعى منها وردى الدم وغير الطبيعى ما يحدث عن احتراق أى خلط كان حتى لسوداء نفسـها . ورابعهـا الأعضاء فمنهـا مفردة كالعظم والغضروف والرباط والعصب والوتر والغشاء واللحم والشحم والسـمين والشرائين والأوردة ، وكلها تحدث عن المنى الا

اللحم فانه يتولد من متين الدم ويعقـده الحر والا السـمين والشحم فانهما يتولدان من مائية الدم ويعقدهما البرد ولذلك يحللهما الحر ، ومنها مركبة اما تركيبا أولياً كالعضل أو ثانيا كالعين ، أو ثالثا كالوجه أو رابعا كالرأس مثلا ، من الأعضاء المركبة الأعضاء الرئيسية أى مبدأ واصل لقوى ضرورية أما بحسب بقاء الشخص وهى ثلاثة : القلب ويخـدمه الشرائين والدماغ ويخدمه العصب والكبد ويخدمها الأوردة وأما بحسب بقاء النوع وهى هذه الثلاثة والانثيان ويخدمها مجرى المنى الى مستقره ، وخامسها الأرواح ولا نعنى بها النفس كما يراد بها فى الكتب الالهية بل نعنى بها جسما لطيفا بخـاريا يتكون من لطافة الأخلاط كتكون الأعضاء من كثافتها والأرواح هى الحاملة للقوى فلذلك أصنافها كأصنافها ، وسادسها القوى وهى ثلاثة أجناس أحدها القوى الطبيعية فمنها متصرفة لأجل الشخص فى الغذاء وذلك اما لتغذيته وهى الغاذية أو الزيادة فى أقطاره على نسبة يقتضيها نوعه وهى النامية ومنها متصرفة لأجل النـوع وهى قوتان احداهما تفصل من أمشاج البدن جـوهر المنى وتهيىء كل جزء منه بعضو مخصوص وهى المولدة وثانيهمـا تشكل كل جزء منه بالشكل الذى يقتضيه نوع المنفصل عنه أو ما يقاربه من التخطيط والتجويف وغيرهما وهى المصـورة . والغاذية يخدمها قوى أربع الجاذبة للنافع والماسكة له مدة طبخ الهاضمة والهاضمة للاحالة والدافعة للفضـلة ، وهذه الأربع تخدمها كيفيات أربع أعنى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ،

والغاذية تخدم النامية وهما تخدمان المولدة ، الجنس الثانى من القوى النفسانية فمنها محركة ومنها مدركة ، والمحركة منها باعثة على الحركة وهى الشوقية وتخدمها الشهوانية والغضبية ومنها فاعلة للحركة بأن تشنج العضل فينجذب الوتر فيقبض العضو أو ترخى العضل فيمتد الوتر فينبسط العضو فتبارك الله أحسن الخالقين ، وأما المدركة فاما مدركة فى الظاهر أو مدركة فى الباطن ، أما المدركة فى الظاهر فهى قوى خمس كالجواسيس للمدركة فى الباطن ، قوة البصر وموضعها التقاطع الصليبى بين العصبتين الآتيتين الى العينين من شأنها ادراك الألوان والأضواء والأشكال ، وقوة السمع وموضعها العصبة المفروشة على الصماخ من شأنها ادراك الأصوات ، وقوة الشم وموضعها العصبتان الزائدتان الشبيهتان بحلمتى الثدى من شأنها ادراك الرائحة المتصعدة مع الهواء المستنشق ، وقوة الذوق وموضعها العصب الذى فى جرم اللسان من شأنها ادراك الطعوم ، وقوة اللمس وموضعها الجلد وأكثر اللحم من شأنها ادراك الملموسات من حرها وبردها ويبوستها به ورطوبتها وخشونتها وملاستها وصلابتها ولينها ، وأما المدركة فى الباطن فمنها مدركة للصور المحسوسة بادراك (النظر ؟) وهى الحس المشترك وموضعه مقدم البطن المقدم من الدماغ ، وخزانة الخيال وموضعه مؤخر البطن المقدم ، ومنها مدركة للمعانى الجزئية القائمة بتلك الصور وهى الوهم وموضعها البطن الأوسط ... الخ .

ويبدو ابن النفيس فى هذا العرض ـ مع ما يمتـاز به من الوضوح والتنظيم ـ ممتثلا للتعاليم التقليدية ، خاليا من أى طرافة فى التفكير ، فهل ـ يا ترى ـ أبدى شيئا من الأصـالة والثورة التى شاهدناهما فى (شرح التشريح) فى الجزء الخاص بالنبض وهو مرتبط بالدورة ، هل اتسعت نظريته فى دورة الدم فى الرئة حتى شملت سائر أعضاء الجسم ؟ .

لننظر فيما قاله فى النبض : (ص ٥٤) « هو حركة وضعية للشرايين قبضاً وبسـطاً لتعـديل الروح بالنسـيم واخراج فضلاته » .

فالنبض فى نظره حركة موضعية المقصود منها أولا استقبال النسيم أى الهواء الخارجى عبر الجلد والأنسجة لتعديل الروح اما بتبريدها واما بطريقة أخرى ، ثم التخلص من فضلات الروح البخارية عبر الطريق نفسها ، وفى هـذا لم يخرج عما أورده (أنبادقليس الأجريجنطى) فى القرن الخامس قبل الميلاد ، الذى قال ان أساس الدورة الدموية هو الروح [١] وهى التى تتصاعد من الدم على شكل بخار عند ذبح القرابين .

ثم تناول النبض بالتقسيم والترتيب ، قال :

« أجناس أدلته عشرة .. أحدها المقدار وأقسامه تسـعة طويل قصير معتدل عريض ضيق معتدل مشرف منخفض معتدل، فاذا ركبت هذه كانت سبعة وعشرين ولكن الزائد فى الأقطار

---

١ (Poeuma.)

الثلاثة هو العظيم والناقص فيها هو الصغير ... وثانيها كيفية قرع الحركة وذلك اما قوى أو ضعيف أو متوسط ... وثالثها زمان الحركة وهو اما سريع أو بطيء أو متوسط ... ورابعها قوام الآلة وهو اما صلب أو لين أو متوسط ... وخامسها زمان السكون وهو اما متواتر أو متفاوت أو متوسط ... وسادسها ملمسى الآلة وهو اما حار أو بارد أو متوسط ... وسابعها مقدار ما فيه من الرطوبة وهو اما ممتلىء أو خال أو متوسط .. وثامنها الاستواء فى أحواله واختلافه فيها وهو اما مستو أو مختلف ... وتاسعها الانتظام فى الاختلاف وعدم الانتظام فيه وهو اما مختلف منتظم وغير منتظم ... وهذا الجنس داخل تحت المختلف فلهذا يجب أن تكون الأجناس تسعة ... وعاشرها الوزن وهو اما جيد الوزن حسنه أو غير جيد الوزن سيئه وأصنافه ثلاثة : مجاوز الوزن كالصبى يكون وزن له وزن نبض الشبان ومبائن الوزن كالصبى الذى يكون له وزن نبض الشيوخ وخارج الوزن وهو أن لا يشبه وزنه وزن سن البتة » .

وفى موضع آخر (ص ٦١) نراه يقسّم النبض الى أنواع ويصفها : العظيم والصغير والمنشارى والموجى والدودى والنملى وذنب الفار والمطرقى وذو الفترة والواقع فى الوسط .

وأخيراً عرض لأسباب النبض فقال بروح الغائية التى لم تفتأ تصبغ تفكيره : « ولنقل فى أسباب النبض الحاجة الى النبض هى ترويح الحار الغريزى فان زادت الحاجة اليه لزيادة

فى الحرارة وكانت الآلة مطاوعة بلينها والقوة مساعدة كان النبض عظيما وان كانت الحاجة أزيد من ذلك وكان أسرع فإن أفرطت تواتر ، وأما ان كانت الآلة عاصية لصلابتها كان أسرع مع صغر ثم تواتر وان كان القوة ضعيفة تواتر مع صغر أزيد من صغر الصلابة ... وقد يصغر النبض لانضغاط القوة تحت المادة الغذائية والمادة الخليطة كما فى أول النوب وان كانت القوة فى أصلها قوية ... ولين النبض للرطوبة ... وصلابته لليبوسة وقد يصلب فى البحارين للتمدد بسبب اندفاع المادة الى جهة ... الخ .

ولننظر الآن الى أجزاء أخرى من (تشريح القانون) غير التي وصف فيها الدورة فى الرئة . وما أشك فى أنه قلب فى هذه الأجزاء الأخيرة النظريات القديمة الخاصة بتهوية الدم رأساً على عقب وأنه وصف ظاهرة فاتت سابقيه ، كما أنه أُلهم فاستنبأ الكشف عن الأوعية الشعرية .

ولكن العالِم الأصيل ، مهما كانت نزعته ، لا يقصر جهده على جمع المشاهدات فحسب ، اذ أن الوازع الدافع الى البحث عن المعلومات الواقعية ، وهو الفضول العلمى ، هو الوازع ذاته الذى يحث على تبويب الملاحظات واستنباط القوانين العامة للكائنات عن طريقها . وما من انسان الا عرج بنظرياته حسب ميله الفلسفى الخاص وحاول التوليف — دون أن يشعر — بين ما يراه وما يدين به ، وليس الكمال من الصفات البشرية ، ولذا فاننا ، وان كنا بعيدين كل البعد عن محاولة الحط

من منزلة ابن النفيس ، يجدر بنا تفقد خط سير تفكيره ، والبحث عن المدى الذى أتاح به لنزعاته الفلسفية الطغيان على تفكيره العلمى ، والجنوح به عن الصواب نتيجة لغلبة الفلسفة على الملاحظات المجردة . وتكفى هنا الاشارة الى أن أخطاءه لم تجىء بسبب امتثاله لسلطان الأقدمين ، اذ أنه أنكر أقوالهم كلما عن له ذلك ، حتى ولو كانوا — فى بعض الأحيان — هم الصائبين .

ومن المواضع الهامة التى انحرف عن الحقيقة فى أثناء نقضه للتعاليم المقبولة ، كلامه فى حركة القلب حيث أنكر حركة تجويف القلب الأيمن ، واليك نص ما قاله فى هذا الشأن :

« المشهور أن البطن الأيمن من القلب له أيضا انبساط وانقباض فانه يجذب الدم بانبساطه كما يجذب البطن الأيسر بانبساطه النسيم . وهذا عندنا من الخرافات . فان الجذب بالانبساط والانقباض انما يكون عما لطف من الأجسام والدم ليس كذلك ... والدم يكفى فى انجذابه الى القلب ما فيه من القوة الجاذبة الطبيعية كما فى غيره من الأعضاء [1] ، وانبساط البطن الأيسر أو انقباضه كما تبين فى غير هذا الموضع انما هو لأجل تعديل الروح بالنسيم ودفع فضولها وتغذية الروح عما ينجذب من

---

(1) كان الدم فى نظره ، محصورا فى الأوردة والقلب الأيمن . فانكاره لدور انقباض القلب فى دفع الدم لا ينطبق على الجزء الأيسر من جهاز الدورة الدموية أو على الشرايين .

النسيم المخالط للطيف الدم ، وهذا كله مما لا يتحقق فى البطن الأيمن ، فلذلك هو (والله أعلم) غير متحرك البتة » .

ولقد قال فى موضع آخر ، وهو فى صدد الشريان الوريدى ــ وهو ما نسميه اليوم الوريد الرئوى ــ قال انه شبيه بالأوردة لأنه من طبقة واحــدة وان جرمه نحيف ، وأومأ الى قول من سبقوه انه نحيف لينفذ منه الدم لتغذية الرئة ، اذ كانت الفكرة السائدة أنه ينبت من القلب ويوصل الروح من القلب الى الرئة ، وعنده أن العكس هو الصحيح ، اذ أنه يوصل الدم من الرئة الى القلب . ثم أضاف أنه شبيه بالشرايين لأنه ينبض مثلها ولذا فقد سمى شريانا وريديا لا وريدا شريانيا .

وقد أخطأ فى هذا أيضا ، اذ أن الشريان الرئوى هو النابض والوريد هو غير نابض ، واضطر ــ نتيجة لهذه الملاحظة الخاطئة ــ الى ايجاد تفسير جديد لنحافة الوريد الشريانى ، فانه عَرِف أن العروق النابضة ، أى الشرايين ، أكثر سمكا من غيرها ، فكيف يكون الوريد الرئوى فى وقت معاً نحيفا (وهذا صحيح) ونابضا (وهذا باطل) ؟ لقد اضطر للتوفيق بين المتناقضين الى القول بأن العروق التى تنبت فى الرئة تخالف عروق البدن فى هذا . وتعرض بعد هذا للتفسيرات المتتابعة التى قدّمت لتفهّم هذه الظاهرة ، منها تفسير (أسقليبيادس) القائل بأن شرايين الرئة شديدة الحركة لأنها تتحرك نتيجة لسببين : أولهما انقباض ذاتى وثانيهما انقباض وانبساط تبعا لحركة الرئة ، بينما الأوردة معتدلة الحركة لأنها تتبع حركة الرئة ليس الا ، والحركة المفرطة

تسبب الهزال بينما الحركة المعتدلة تسبب الغلظة . أما فى سائر الجسم فان الأوردة ساكنة وقلة الحركة مذبلة ، بينما الشرايين تتحرك حركة ذاتية فقط فيغلظ جرمها .

وتعرض بعد هذا لأقوال جالينوس الذى بدأ بتخطئة هذا الرأى بأمرين ، أولهما أنه لو كانت الحال كذلك لحدث الاختلاف بزيادة الغلظ أو قلته لا بعـدد الطبقات ، وثانيهما أن هـذا الاختلاف بين الرئة والجسم موجود فى الأجنة قبل أن تتحرك رئاتها . ثم خلص الى رأى جالينوس ، وهو أن شرايين الرئة خلقت لجذب الهواء الى القلب ودفع فضوله ، فينبغى لها أن تكون سهلة الاستجابة لمتابعة الرئة فى حركتها ، أما الأوردة فان المطلوب منها تنفيذ الغذاء وهذا مما تضر فيه الحركة ، ولذا وجب أن تكون أبعد عن قبول متابعة الرئة فى الحركة .

وأخيرا أفصح ابن النفيس عن رأيه الخاص وهو أن الوريد الشريانى جُعل سميكا ذا طبقتين ليكون ما ينفذ منه من الدم شديد الرقة ، وليتصفى ألطف ما فيه فيصلح لمخالطة الهواء ، لأن الهواء لو خلط بالدم وهو غليظ ينجم عن اختلاطهما جسم غير متشابهة الأجزاء ، أما الشريان الوريدى فهو رهف ذو طبقة واحدة ليسهل قبوله ما يخرج من الوريد .

والحقيقة أن الشريان الرئوى سميك كسـائر الشرايين لأن ضغط الدم فى داخله مرتفع ، بينما الوريد الرئوى رهف كسائر الأوردة اذ أن ضغط الدم فى داخله منخفض . وقد يبدو قولنا هذا متلبسا بالتهمة التى رمينا بها ابن النفيس ، وهى الغائية التى

تستنبط ضرورة ورود الشكل على وجه يلائم الوظيفة ، لأن الطبيعة تجعل كل شيء على أحسن حال . ولا شك فى أن أجزاء الجسم مكونة — الى حد بعيــد — على شكل يلائم وظائفها المختلفة . الا أنه يمكن النظر الى هذه الحقيقة — وهى حقيقة تقريبية وحسب — من زاوية من زوايا عديدة .

أما النظرة الغائية — التى ترى أن الطبيعة لم تخلق شيئا الا لغرض معين وعلى شكل يتفق وهذا الغرض كامل الاتفاق — فان لها عيوبا كثيرة : أهمها أنها تلزم فرض وظيفة لكل كبيرة وصغيرة فى الجسم ، وهذا مع اغفال أمرين ، الأول : ما طرأ على الأجسام من تغيرات نشوئية على مر الأجيال ، وهى تغيرات أدت الى بقاء بعض أجزاء أمست غـير ذات فائدة ، كالزائدة الدودية أو الأظافر ، والثانى : عدم استكمال معلوماتنا عن وظائف بعض الأعضاء كالثيموس أو الغدة الصنوبرية ، التى التزمت الفلسفة الغائية باسناد وظيفة اليها ، فقيل انها مركز الروح ، الى غير هذا مما ليس له أساس فى الحقيقة .

وقد فسر (لمارك) ملاءمة الأعضـــاء للوظيفة بقــوله ان « الوظيفة تخلق العضو » وهذا صحيح بعد خروج الفرد من مرحلة التكوين الخلقى ، نتيجة لما فى الأجسام الحية من القدرة على التطور استجابة للظــروف ، فان العضلات تقــوى اذا استعملت وتهــزل اذا أهملت . الا أن مثل هــذه التغيرات المكتسبة غير قابلة للتوارث .

ويمكن تفسيرظاهرة تلاؤم العضو والوظيفة بتطبيق نظرية بقاء

الأصلح . فان كل الكائنات الحية خاضعة لظهور طفرات ، أى تغييرات طفيفة فى تكوينها ، فى أثناء تطورها المستمر ، فاذا فرضنا أن احدى هذه الطفرات ، وهى قابلة للتوارث ، حققت فائدة بأن أمدت صاحبها بجهاز أصلح للبقاء فانها ، بطبيعة الحال ، تنتقل — وقد تضاعفت بحكم التوارث الانتخابى — الى أن تثبت على مر القرون فى جميع أفراد الجنس ، ويمكن القول بشيء من التأكيد أن سير التطور وجهته طفرات متتابعة حققت كل منها ميزة صغيرة ، مهما كانت تفاهتها .

ولنعد الى ابن النفيس ، انه لا يحط من منزلته الرفيعة أن يكون — فى النبذة التى ذكرناها فى شأن الشريان الرئوى والوريد الرئوى — قد أخطأ فى أمرين (وهما اسناد الحركة الى الوريد الرئوى والسكون الى الشريان الرئوى ؛ ونفوذ الدم عبر جدران الشريان) اذ أن تشريح الأحياء وهو الذى يسمح بملاحظة الأوعية فى أثناء الحياة ، لم يكن متاحا له ، وأن العدسة المكبرة — التى رأى (ماليبجى) بها الأوعية الشعرية الخفية عن العين المجردة — لم تكن اخترعت بعد .

كما أنه لا يحط من منزلته كذلك أن يتجه الاتجاه الفلسفى الذى كان سائدا فى زمانه . وقد أثرت نزعته الغائية أثرا بعيدا فى تفكيره . نرى آثارها فى حديثه عن حجم الشريان الأورطى وعن سبب تفوقه على حجم الشريان الرئوى ، اذ قال ان السبب فى هذا هو أن الدم والهواء النافذين فى الشريان الرئوى يجب أن يكونا قليلين والا خنقا الروح التى فى التجويف الأيسر

باتطفاء الحرارة الغريزية فيه ، ولذا لا بد من أن يكون هــذا الشريان صغيرا جديدا بالنســبة الى الأورطى الذى تنفذ منه الروح الى الأعضاء كلها ، وهو بتفسيره هذا ينكر ما قيل قبله فى الصــدد ذاته ، وهو أن الشريان الرئوى والوريد الرئوى يشتركان فى تغذية الرئة ، وهى عضو واحد ، بينما الأورطى يغذى جميع أعضاء الجسم ، وقد أخطأ فى هذا ابن النفيس ومن سبقوه على السواء ، اذ أن كمية الدم المارة فى الشريان الرئوى تساوى تلك التى تمر من الأورطى .

واذا أمعنا فى البحث عن سبب هذا الخطأ وجدنا أنه نتيجة طبيعية لنقص فى معرفته بآلية مجــرى الدم ، أدى الى فروض مخطئة ، استوجبت بدورها اســتنتاج اختلاف حجم هــذين الوعاءين وتباين فى كمية الدم الجارية فى كل منهما ، دون اجر أية قياسات .

وهذا الاتجاه الفكرى يعلن وجوده جهارا فى المبحث الثالث ، وهو المعنى بتشريح الرئة ، اذ أنه يكاد يصدّر كل جملة منه بعبارة : « أما حاجة كذا الى كذا فلأن .. » وهو يصل بذلك الى فائدة العضو عن طريق حاجة الجسم الى هذه الوظيفة ، وقد يكون هذا التفكير صحيحا ، وفقا لما قلناه من تلاؤم الوظيفة والتشريح بصفة عامة ، اذا كانت المعرفة بالحاجة كاملة ، ولكن هذه المعرفة لم تكن قد تحققت بعد ، بل انها لم تتم لنا اليوم على الوجه الأكمل ، والأصح أن تستنتج الوظيفة من الشكل والاختبار والملاحظة ، وهى أسس المعرفة ، يقول : « أما حاجة

الرئة الى الوريد الشرياني فلأن ينفذ اليها الدم الذى قد لطف وسخن فى القلب (يقصد التجويف الأيمن) ، ليختلط مايترشح من ذلك الدم من مسام فروع هـذا العرق فى خلل الرئة مع الهواء الذى فى خللها ويمتزج فيكون من الجملة ما يصلح لأن يكون روحا اذا حصل ذلك المجموع فى التجويف الأيسر من القلب وذلك بايصال الشريان الوريدى لذلك المجموع الى هذا التجويف» . ثم عندما يتناول الوريد الرئوى : «وأما حاجة الرئة الى الشريان الوريدى فبأن ينفذ فيه هذا الهواء المخالط لذلك الدم ليوصله الى التجويف الأيسر من تجويفى القلب فيصير هذا المجموع روحا .. » وهذا لا غبار عليه اللهم الا فيما يخص الروح ، ولكننا لنا كلام فى سائر حديثه اذ يقول : « أما حاجة الرئة الى الشريان الوريدى .. أن ينفذ فيه ما فضل فى هذا التجويف من ذلك المجموع فلم يصلح لأن تتكون منه روح ، وما فضل فيه من الهواء الذى يسخن وبطلت فائدته فى تعديل الروح والقلب وأحتيج الى اخراجه ليتسع المكان لمـا يدخل بعده من الهواء اما وحده واما مخالطا للأجزاء الدموية الشديدة اللطافة ليوصل ذلك الى الرئة فتخرجها عند ردها التنفس » .

وهذا معناه أن الدم والهواء اذا وصلا الى التجويف الأيسر عن طريق الوريد الرئوى ، ونتجت الروح من مخالطتهما ، فان البواقى من الدم والهواء غير الصالحة لتوليد الروح ، والتى يجب التخلص منها ليتسع المجال للوارد الجديد ، ان هـذه البواقى يوصلها الوريد الرئوى الى الرئة ـــ على عكس اتجاه

الدم منه — لاخراجها فى النفس . وهنا وقع فى الخطأ الذى وقع فيه جالينوس وابن سينا وغيرهما عندما افترضـــوا حركة مد وجزر فى الأوعية ، لا حركة وحيدة الاتجاه .

وقد قال فى حديثه عن الرئة : « وكذلك تحتاج الرئة أن يكون لحمها متخلخلا وذلك ليكون كثير المسام واسعها والغرض من ذلك أن تمتلىء الفرج التى فى جرمها هواء فيعتدل بذلك الهواء ويخرج بما يترشح الى جرمها من الدم اللطيف الهوائى الذى لا يصلح لغذاء الرئة ولكنه يصـــلح لأن يخالط ذلك الهواء ويحدث من مجموعهما جـــرم يصلح لأن يســـتحيل فى القلب روحا » . وهنا أيضا استنتج التكوين من وظيفة افترضها .

نظرية ابن النفيس فى وظيفة القلب وعلاقته بالدم والكبد والرئة والروح :

اذا جمعنا أقوال ابن النفيس الخاصة بالدم والقلب والكبد والرئة والروح أمكننا استخلاص نظريته العامة فى كيفية عمل الجسم ، أو بتعبير حديث ، نظريته الفسيولوجية على الوجه الآتى :

ان أساس الحياة هو الروح وهى الحاملة للقوى ، وهذه الروح ليست ما يراد بها فى الكتب الالهيـــة ، وانما هى جسم لطيف يتكون من الجزء اللطيف من الأخلاط كما تتكون الأعضاء من الجزء الغليظ فيها .

ليست وظيفة القلب أن يعمل على شكل مضخة تدفع الدم الى الأنسجة ، وهى الوظيفة المعترف بها الآن — ولكن وظيفته

هى توليد الروح . والروح تتكون فى الجزء الأيسر من القلب من (انطباخ) مزيج مكون من جزء قليل من الدم وجزء أكبر من الهواء .

أما الدم فانه يتكون فى الكبد ، ومن ثم يذهب أكثره الى الأنسجة وقليله الى الجانب الأيمن من القلب ، وهذا طبيعى لأن موضع الكبد هو الجانب الأيمن من البدن . وفى البطن الأيمن تجرى عمليتان : أولاهما تخلص الدم من الشوائب التى تكون قد علقت به ، وهذا بتبخرها وتصاعدها الى الرئة والزفير ، وثانيتهما تلطيف قوامه ليلائم لطافة الهواء ، والا لما حدث من مزيجهما جرم متجانس .

أما تلطيف الدم فيحدث من تسخينه وغليانه ، وهذا لا يمكن حدوثه فى العروق لعدم اتساعها للانبساط الضرورى ليرق قوام الدم رقة كافية ، فلا بد من أن يوجـد تجويف خاص لهذه العملية التمهيدية ، وهذا التجويف هو التجويف الأيمن .

ثم يغادر الدم التجويف الأيمن سالكا طريق الشريان الرئوى ويصل ــ بعد أن يخفف ــ الى الرئة حيث يختلط بالهواء . ولا بد كذلك من وجود تجويف آخــر لتتكون فيه الروح وتخرج منه لتوزع على الأنسجة ، وهذا هو التجويف الأيسر حيث يصل الدم عن طريق الوريد الرئوى .

أما الروح التى تتولد فى التجويف الأيسر فلا بد من أن تكون شديدة اللطافة هوائية ، فهى لا محالة مستعدة لسرعة التحلل ، فيجب أن يمدها القلب كل الوقت بالغذاء ، ويجب أن

يكون غذاؤها مشابها لجوهرها ، فلا بد من أن يكون هوائيا ، هذا بمخالطة أجزاء لطيفة جدا من الدم لجوهر هوائى غزير ، و (بانطباخ) هذا المزيج لاعـداده لأن يصـبح روحا . أما الانطباخ والامتزاج فلا يمكن أن يحدثا فى القلب لكثرة حركته التى لاتسمح ببقاء المزيج مدة كافية ، فلا بد من أن يكون ابتداء هذا الانطباخ فى عضو آخر . وهذا العضو يجب أن يحوى كمية كبيرة من الهواء ، ويجب أن يكون بالقرب من القلب لئلا يبرد رقيق الدم خلال المسـافة بينهما ويتكثف ، وذلك العضو الملىء بالهواء والقريب من القلب هو الرئة ، أما موضع القلب الذى تكمن فيه الروح فيجب أن يتسع لما يكفى البدن كله من الروح ، فلذلك لا بد للقلب من أن يحوى تجويفا غير الذى يتم فيه تلطيف الدم ، وهو الذى يحوى الروح ، وتنفذ منه الروح الى جميع الأعضاء . وكما أنه لا بد من أن يكون التجويف الذى فيه الدم قريبا من الكبد ، وأن يكون الى أيمن القلب لأن الكبد فى أيمن البدن ، كذلك لا بد من أن يكون التجويف الذى يحوى الروح فى الجانب الأيسر من القلب، ويجب أن يكون أكثر سعة من الأيمن ، لأن كمية الدم التى تصل الى التجويف الأيمن يكفى أن تكون قليلة جدا (اذ أن الروح الحيوانى فى نظره يغلب فيه الهـواء ولا يحوى الا قليلا من الدم) . بينما الروح الموجود فى التجويف الأيسر يجب أن يكون غزيرا لانتشاره فى جميع الأعضاء . لذلك يجب أن يكون هذا التجويف عميقا ، وهذا يستتبع أن يكون القلب طويلا

ليتسع لعمقه . ولكن يجب أن يكون فيه موضع عظيم السعة ، ويجب أن يكون هذا الموضع العظيم السعة فى أعلى القلب ليكون بالقرب من الرئة كى يسرع وصول ما يصل الى الرئة من القلب وما يرد الى القلب من الرئة ، ولذا يجب أن يكون أوسع موضع فى القلب هو أعلاه ، وأما أسفله فيجب أن يكون بالغ الدقة وذلك لفقدان هذين التجويفين هناك ولأن الغلظ غير محتاج اليه هناك ، وينبغى أن يكون الانتقال من سعة أعلى القلب وأغلظه الى دقة أسفله تدريجيا ، ولذلك جاء شكل القلب صنوبريا .

واننـــا ، اذ نعجب لطـــول نفس ابن النفيس فى هـــذا (الاستعراض للعضلات) المنطقى الذى أوصله الى أتفه التفاصيل التشريحية من ضرورتها ، نتعجب أيضا عدد المواضع التى وردت فيه عبارات (لا بد) و (يجب) و (يلزم) فى صدر كل جملة من جمل هذه الفقرة .

ان ابن النفيس حتى عندما يرجع الى التشريح لدعم قضاياه ، يضيف وجوب تكوين الأعضاء حسبما يتراءى له من وظائفها ، فقد قال فى تعليقه على أحد أقوال ابن سينا : « وقوله فيه ثلاث بطون ، هذا الكلام لا يصح فان القلب له بطنان فقط أحدهما مملوء من الدم وهو الأيمن والآخر ممـــلوء من الروح وهو الأيسر ، ولا منفذ بين هذين البطنين البتة والا كان الدم ينفذ الى موضع الروح فيفسد جوهرها . والتشريح يكذب ما قالوه ، والحاجز بين البطنين أشد كثافة من غيره لئلا ينفذ منه شيء من

الدم أو من الروح فيضيع » ، على أنه لم يفته أن يلاحظ أن ابن سينا أخطأ نتيجة لاتجاهه الغائى فى التفكير ، الذى يفرض الأشياء ثم يكيف التشريح ليلائمها ، وهو الاتجاه ذاته الذى درج فيه، فقد أضاف الى الفقرة السابقة قوله : « فلذلك قول من قال ان ذلك الموضع (أى الحاجز) كثير التخلخل باطل ، والذى أوجب له ذلك ظنه أن الدم الذى فى البطن الأيسر انما ينفذ اليه من البطن الأيمن من هذا التخلخل وذلك باطل » .

لن يقدّر لأى عالم حل رموز كل الكون ، بل قد لن يقدر لأحد معرفة سر واحد معـرفة كاملة . ان الطبيعة ، كالغـادة الفاتنة ، لا تكشف عن جمال صورتها الا جزءا فجزءا ، وما أن تبين حسنة حتى تغرينا بمفاتن أخرى خفية . ويكفى ابن النفيس فخرا أن يكون أفصح بوضوح ويقين عن رأى ثورى فى جزء من الدورة الدموية ، وان كان لنا أن نبحث عن حججه فى ذلك ، ومصادرها ، وأنواعها ، هل شرح جثثا ؟ هل فتح أبداننا حية ليتفقد حركة أوعيتهـا ؟ أم هل اكتفى بالتفكـير المركز دون الرجوع الى الملاحظة والاختبار ؟

وعندنا أن قصر انتقاده لتعاليم جالينوس وابن سـينا على ما قاله فى التشريح ، وقبوله أقوالهما فى غير ذلك قبولا تاما ، ووضع هذا الانتقاد فى مؤلف خاص هو (شرح تشريح القانون)، وابتداعه ـــ أول مرة فى التاريخ ـــ بدعة تصنيف مؤلف خاص بالتشريح ، مستخلصا فيه أقوال ابن سينا فى هـذا العلم فى

القانون ، ثم تأليفه موجزا (للقـانون) ذاته فى غير ما يخص التشريح ، كل هذا ينم على الفصل ، فى ذهنه ، بين هذا الجزء من الطب وبين العلوم الطبية الأخرى ، ويدل دلالة واضحة على وضعه التشريح فى موضع خاص منها .

لقد قدمنا ما يوحى باجرائه الصفات التشريحية ، كقوله « والتشريح يكذب هذا » ، أو كاستحالة درايته بالأوعيـة الأكليلية دون معاينة القلوب ، وان كانت قلوبا اشـتراها من اللحامين ، أو كافراده أبوابا كاملة لمنافع فن التشريح وللوصول الى علم التشريح عن طريقه ، وأبوابا أخرى للآلات التى تستعمل من أجله . ولئن أخطأ فى بعض الأمور ، فانما هذه الأمور محصورة فى مشاهدات وظيفية ، كقوله ان الشريان الرئوى لا ينبض وان الوريد ينبض . وهذه الأوعية لا يمكن مشـاهدتها وهى فى مواضعها الطبيعية الا بصـعوبة فائقة . وهـذا لقصر طولها ولاختفائها دفينة بين الأوعية وبين تجاويف القلب والرئتين . أما اذا انتزعت فان حركتها ــ بطبيعة الحال ــ تزول ، أضف الى هذا أنها ، حتى اذا عوينت فى الحيوان الحى ، فانه يستحيل تمييز حركتها من حركة تجاويف القلب والأوعية الأخرى المجاورة لها والرئتين .

ولقد قابل (هارفى) ذاته الصعوبة نفسـها ، واضطر الى القيام بملاحظاته التاريخية على حيوانات بطيئة النبض أمثـال السحالف أو الحيوانات الأخرى فى حال النزاع قبيل الموت . وأعرب فى مؤلفه الشهير عن حركة القلب عن مشقة تحليل حركة

كل جزء من الجهاز الدموى . فكيف كان لابن النفيس ، وهو ان شرح فانمـا فعل فى جو مظلم من السرية والتسرع ، أن يلاحظ نبض هذه الأوعية ؟

أما فلسفته فانها كانت فلسفة عصره ، وقد سلك فيها نهجا معبدا لم ينحرف عنه ، وهذا شأن العلماء الباحثين المتشككين فى ميادين بحثهم ، والذين يبتغون من الميادين الأخرى ركائز راسخة يرتكنون اليها . لقد كان ابن النفيس عملاقا ولكنه كان انسانا ، ولقد حاولنا رسم صورة صادقة له ، بجمع السيماء التى وصفت عنه ، ولعلنا نجحنا رغم اعجابنا البالغ به فى حفظ ما فى صورته من الأنس ، وفى تثبيت الملامح التى ، اذا تلاشت ، لم يبق منه الا خيـال .

تذييـــل

ترجمة ابن النفيس كما وردت فى
« مسالك الابصار لاخبار ملوك الأمصار » للعمرى (٣٠١)
ومنهم على ابن ابى الحزم

هو الامام الفاضل الحكيم العلامة علاء الدين بن النفيس القرشي الدمشقى فرد الدهر وواحده وأخو كل علم ووالده ، امام الفضايل وتمام الأوايل ، والجبل الذى لايرقى علاه بالسلالم ، والحبل الذى لا يعلق به الا الغريق الســالم ، لم يبق الا من اغترف منه غرفة بيده ، وأخذ منه حلية لمقلده ، حل مصر فى محل ملكها ، ونسخت لياليها باشراقه صبغة حلكها ، وقرأ عليه بها الأعيان وكلاء فضله وأعان ، ولم يكن على علم واحد يقتصر ولا شبهه بالبحــر الا مختصر ، هــذا الى حسب غير مرءوس وحسب مثل جناح الطاووس وبشر قرشى لا يحل معه فى بطحاية ولا يحت فى البيد قلاص بطاية ، زكا محتداً وزهى بيتاً لم يضرب غير متوسط السماء وتداً وكمل ذاته بكرم وخير ومجد فى أول وأخير ومزايا استحقاق وسجايا كحواشى النسيم الرقاق ومحاسن كطوالع النجوم ما فيها شقاق ، قال ابن أبى أصيبعة : نشــأ بدمشــق واشتغل بها فى الطب على المهــذب الدخوار وكان الدخوار منجبــا تخرج عليه جمــاعة منهم الرضى وابن قاضى

بعلبك والشمس الكلى ، وكان علاء الدين اماماً فى علم الطب لا يضاهى فى ذلك ولا يدانى استحضاراً واستنباطاً ، واشتغل على كبر وله فيه التصانيف الفايقة والتواليف الرايقة ، صنف ، كتاب الشامل فى الطب تدل فهرسته على أنه يكون فى ثلثماية سفر ، هكذا ذكر بعض أصحابه ، وبيض منها ثمانين سفرا وهى الآن وقف بالبيمارستان المنصورى بالقاهرة ، وكتاب المهذب فى الكحل ، وشرح القانون لابن سينا فى عدة أسفار ، وغير ذلك فى الطب ، وهو كان الغالب عليه ، وأخبرنى شيخنا أبو الثناء محمود أنه كان يكتب اذا صنف من صدره من غير مراجعة حال التصنيف ، وله معرفة بالمنطق وصنف فيه مختصراً ، وشرح الهداية لابن سينا فى المنطق وكان لا يميل فى هذا الفن الا الى طريقة المتقدمين كأبى نصر وابن سينا ويكره طريقة الأفضل الخونجى والأثير الأبهرى ، وصنف فى أصول الفقه والفقه والعربية والحديث وعلم البيان وغير ذلك ، ولم يكن فى هده العلوم بالمتقدم انما كان له فيها مشاركة ما ، وقد اختصر من تصنيفه فى العربية كتابا فى سفرين أبدى فيه عللا تخالف كلام أهل الفن ، ولم يكن قرأ فى هذا الفن سوى الأنموذج للزمخشرى قرأه على ابن النحاس وتجاسر به على أن صنف فى هذا العلم ، وعليه وعلى العماد النابلسى تخرج الأطباء بمصر والقاهرة ، وكان شيخاً طوالا أسيل الخدين نحيفا ذا مروءة ، وحكى أنه فى علته التى توفى فيها أشار عليه بعض أصحابه الأطباء بتناول شيء من الخمر اذ كان صالحا لعلته على ما زعموا

فأبى أن يتناول شيئاً منه وقال لا ألقى الله تعالى وفى باطنى شىء من الخمر ، وكان قد ابتنى داراً بالقاهرة وفرشها بالرخام حتى ايوانها وما رأيت ايواناً مرخما فى غير هـذه الدار ، ولم يكن مزوجاً ووقف داره وكتبه على البيمارستان المنصـورى وكان (يغض من) [1] كلام جالينوس ويصفه بالعى والاسهاب الذى ليس تحته طايل ، وهذا بخلاف النابلسى فانه كان يعظمه ويحث على قراءة كلام جالينوس ، وكان علاء الدين قد نزل يدرّس بالمسرورية بالقاهرة فى الفقه وذكروا أنه شرح فى أول التنبيه الى باب السهو شرحاً حسناً ومرض رحمه الله تعالى ستة أيام أولها يوم الأحد وتوفى فى سحر يوم الجمعة الحادى والعشرين من ذى القعدة سـنة سبع وثمانين وسـتماية بالقـاهرة ، قال أبو الصفاء أخبرنى الامام العلامة الشيخ برهان الدين الرشيد خطيب جامع أمير حسين بالقاهرة قال كان العلاء بن النفيس اذا أراد التصنيف توضع له الأقلام مبريّة ويدير وجهـه الى الحائط ويأخذ فى التصنيف املاءً من خاطره ويكتب مثل السيل اذا تحدر فاذا كل القلم وحفى رمى به وتناول غيره لئلا يضيع عليه الزمان فى برى القلم ، قلت وبهذا حدثنى شيخنا أبو الثناء محمود قال أبو الصفاء وأخبرنى شيخنا نجم الدين الصفدى أن ابن النحاس كان يقول لا أرضى بكلام أحد فى القاهرة فى النحو غير كلام ابن النفيس أو كما قال ، وقد رأيت له كتابا صغيراً

---

(١) (١ ينقص) وصححها مايرهوف الى (ببعض كلام) (٢٨) .

عارض به رسالة حى بن يقظان لابن سينا ووسمه بكتاب فاضل ابن ناطق وانتصر فيه لمذهب أهل الاسلام وآرائهم فى النبوات والشرايع والبعث الجسمانى وخراب العالم ولعمرى لقد أبدع فيها ودل على قدرته وصحة ذهنه وتمكنه فى العلوم العقلية ، وأخبرنا السديد الدمياطى الحكيم بالقاهرة وكان من تلاميذه قال : اجتمع ليلة هو وابن واصل وأنا نايم عندهما فلما فرغا من صلاة العشاء الآخرة شرعا فى البحث وانتقلا من علم الى علم والشيخ علاء الدين (فى) [1] كل ذلك يبحث برياضة ولا انزعاج وأما القاضى علاء الدين فانه ينزعج ويعلو صوته وتحمر عيناه وتنتفخ عروق رقبته ولم يزالا كذلك الى أن أسفر الصبح فلما انفصل الحال قال القاضى جمال الدين يا شيخ علاء الدين أما نحن فعندنا مسايل ونكت وقواعد وأما أنت فعندك خزاين علوم ، وقال أبو الصفا قال السديد أيضا قلت له يا سيدى لو شرحت الشفاء لابن سينا كان خيراً من شرح القانون لضرورة الناس الى ذلك فقال الشفا علىّ فيه مواضع (تريد تسويدا) [2] قلت يريد أنه ما فهم تلك المواضع لأن عبارة الرئيس فى الشفاء غلقة ، قال وأخبرنى آخر قال دخل الشيخ علاء الدين مرة الى الحمام التى فى باب الزهومة فلما كان فى بعض تغسيله خرج الى مسلخ الحمام واستدعى بدواة وقلم وورق وأخذ فى تصنيفه

---

(١) من « الواقّ بالوفيات » (٥١) .

(٢) ورد : « يريد انها » فى مخطوط القاهرة . أما هذا التصحيح فهو من « الواق بالوفيات » (٥١) .

مقالة فى النبض الى أن أتمـاها ثم عاد ودخل الحمـام وكمل تغسيله ، وقيل انه قال لو لم أعلم أن تصانيفى تبقى بعـدى عشرة آلاف سنة ما وضعتها والعهدة فى ذلك على من نقله عنه ، وعلى الجملة كان اماماً عظيما وكبيرا من الأفاضل جسيما وكان يقال : هو ابن سينا الثانى ، قال ونقلت من ترجمته فى مكان لا أعرف من هو الذى وضعه قال شرح القانون فى عشرين مجلداً شرحاً حل فيه المواضع الحكمية ورتب فيه القياسـات المنطقية وبيّن فيه الاشكالات الطبية ولم يسبق الى هذا الشرح لأن قصارى كل من شرحه أن يقتصر على الكليات الى نبض الحبالى ولا يجرى فيه ذكر الطب الا نادراً ، وشرح كتب بقراط كلها ولأكثرها شرحان مطول ومختصر ، وشرح الاشـارات ، وكان يحفظ كليات القانون ويعظم كلام بقراط ولا يشير على مشتغل بغير القانون وهو الذى جسّر الناس على هذا الكتاب ، وكان لايحجب نفسه عن الافادة ليلا ولا نهارا ، وكان يحضر مجلسه فى داره جماعة من الأمراء والمهذب بن أبى حليقة رئيس الأطباء وشرف الدين بن الصغير وأكابر الأطباء ويجلس الناس فى طبقاتهم ، ومن تلاميذه الأعيان البدر حسـن الرئيس وأمين الدولة ابن القف والسديد الدمياطى وأبو الفرج الاسكندرى وأبو الفرج ابن الصغير ، وحدثنى عنه غير واحـد منهم شيخنا أبو الفتح ليعمرى قال : كان ابن النفيس على وفور علمه بالطب واتقانه لفروعه وأصوله قليل البصر بالعلاج فاذا وصف لا يخرج بأحد عن مألوفه ولا يصف دواءً ما أمكنه أن يصف غذاء ولا مركبا

ما أمكنه الاستغناء بمفرد ، وكان ربما وصف القمحية لمن شكا القرحة والتطماج [1] لمن شكا هواء، والخروب والقضامة لمن شكا اسهالا ، ومن هذا ومثله ولكل ما يلايم مأكله ويشاكلها حتى قال له العطار الشرابي الذى كان يجلس عنده : اذا أردت أنك تصف مثل هذه الوصفات اقعد على دكان اللحام ، وأما اذا قعدت عندي فلا تصف الا السكر والشراب والأدوية . وحكى لى شيخنا أبو الثناء الحلبى الكاتب قال : شكوت الى ابن‌النفيس عقالا فى يدى فقال لى : وأنا والله به عقال . فقلت له : فبأى شىء أداويه ؟ فقال : والله ما أعرف بأى شىء أداويه . ثم لم يزدنى على هذا .

---

(1) حولها مايرهوف الى (الطباهج) وهو نوع من اللحم المطهو بالزيتون والتوابل (٢٧٨) .

المراجع

(١) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، طبعة دار الفكر ، بيروت سنة ١٩٥٧ ، الجزء الأول ، ص ٦٣ .

(2) Ghalioungui, P., 1963, Magic and Medical Science in Ancient Ehypt, Hodder & Stoughton, London, pp. 47, 59.

(٣) بول غليونجى ، هل لقدماء المصريين نظريات طبية ؟ ــ الدورة العلمية الخامسة لسنة ١٩٦١ ، الاتحاد العلمى المصرى ، ١٩٦٢ ، ص ١ .

(٤) أبو الحسن جمال الدين على بن يوسف الشيبانى بن القفطى ، أخبار العلماء بأخبار الحكماء .

(٥) موافق الدين عبد اللطيف البغدادى ، الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، طبع المجلة الجديدة بمصر ، الجزء الرابع ، المقال الأول .

(٦) أبو الفرج يوحنا بن العبرى الملطى (Barhebraeus) ، تاريخ مختصر الدول .

(٧) انظر تفصيل هــذا فى مقال للأستاذ محمد مجدى رد فيه على الأسقف قبرلس :

Magdi, M. 1910, Bull. Soc. Khédiv. de Géogr., VII serie, No. 10, p. 554.

(8) Casanova, P., L'incendie de la Bibliothèque d' Alexandrie par les Arabes, C. R. Séances de l'Acad. d. Inser. & Belles Lettres, 1923, p. 163.

(9) Naidu, P. V., Omar and the Alexandrian Library, Calcutta Review, 51, p. 313.

(10) Furlani, G , A Egyptus, V. 1924, p. 205 & Bull. Soc. Arch. d'Alex , 1925, No.21,p.58.

(11) Breccia, E., Alexandria ad AEgyptum, Alexandrie 1922, p. 49 quoted by Meyerhof, M. (13)

(12) Maspero, J., Histoire des Patı arches d'Alexandrie, quoted by Mayerhof, M.(13).

(13) Maspero, J. , Horapollon et la fin du paganisme, Bull. Inst. Fr. d'Archéol. Or., 1914, XII, p. 165.

(١٤) ابن أبى أصيبعة[1] ، الجزء الثانى ، ص ١٣٥ .

(15) Meyerhof, M., 1933, Bull. Inst. d'Eg., XV, fasc. 1, p. 109.

(16) Meyerhof, M., Von Alexandrien Nach Bagdad, 1931, Mitteil. Deutsch. Inst. f. aeg. Altertumskunde in Cairo, 2, 1—21.

(17) Temkin, O., Byzantine medicine, Tradition and Empiricism,Dumbarton Oaks Center for. Byzantine Studies, Washington.

(١٨) ابن أبى أصيبعة[1] ، الجزءين الثانى والثالث .

(١٩) محمد عبد الحليم العقبى ، ١٩٦١ ، تاريخ الطب عند العرب ، الجمعية المصرية لتاريخ العلوم ، العدد الثالث ، ص ٥ .

(٢٠) عبد اللطيف البغدادى(٥) ، ص ٧٣ و ٧٤ .

(٢١) ابن أبى أصيبعة(١) ، الجزء الثالث ، ص ٣٣٤ .

(٢٢) محمد كامل حسين ، تاريخ الطب عند العرب، أكتوبر ١٩٤٩، المجلة الطبية المصرية ، مجلد ٣٢ ، عدد ١٠ ، ص ٢٦٩ .

(23) Leclerc, L., Histoire de la Médecine Arabe, 1876, II, pp. 207 — 209.

(24) Die Handschriften-Verzeichnisse der Kgl. Bibliothek zu Berlin, Bd. XVII, W. Ahlwardt, Verzeichnis der arabischen Hands--chriften, Bd. V, Berlin, 1893, s. 496 — 497.

(25) Tatawi, M., Der Lungenkreislauf nach el Koraschi, Dissert. z. Erl.d. med. Doktorwurde, Freiburg im Breisgau, 1924.

(26) Meyerhof, M., 1935, Isis, No 65, vol. 23, I, p.100.

(27) Sarton, G., Introduction to the History of Science, Williams &Wilkins, Baltimore, 1931, II, p. 1100 and elsewhere.

(28) Meyerhof, M., 1935, Quellen u. Studien z. Geschichte der Naturwiss. u.d. Medizin, Band 4.

(٢٩) يوسف العيش : مخطوطات دار الكتب الظاهرية ، التاريخ وملحقاته ، مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق ، مطبعة دمشق ، ١٩٤٧ ، ص ٣٠٦ .

(30) Bittar, E.E., 1955, Bull. Hist. Med, XXIX. no 4, p. 352 & no.5, p. 449.

(٣١) مسالك الأبصار فى أخبار ملوك الأمصار ، لشهاب الدين أحمد ابن فضل الله العمرى ، دار الكتب المصرية بالقاهرة ، مخطوط ٩٩ م تاريخ ، الجزء السابع ، ص ٢٢٥ .

(٣٢) محمد بن أحمد بن إياس الحنفى المصرى ، المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، كتاب الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠١ .

(33) A.K. Chehade, 1955, Ibn An-Nafis et la découverte de la circulation pulmonaire, Inst. Franç de Damas, p. 27.

(٣٤) ابن أبى أصيبعة[١] ، الجزء الثانى ، ص ٢٢١ .

(٣٥) ابن أبى أصيبعة[١] ، الجزء الثانى ، ص ١٩٦ .

(٣٦) ابن أبى أصيبعة[١] ، الجزء الثانى ، ص ٢٠٠ .

(٣٧) مسالك الأبصار[٣١] ، الجزء الثامن ، ص ٢٠٦ .

(٣٨) ابن أبى أصيبعة[١] ، الجزء الثالث ، ص ٣٩٠ .

(٣٩) ابن أبى أصيبعة[١] ، الجزء الثانى ، ص ٢٤٤ .

(٤٠) ابن أبى أصيبعة[١] ، الجزء الثالث ، ص ٣٥٠ .

(٤١) ابن أبى أصيبعة[١] ، الجزء الثالث ، ص ٢٥٦ .

(٤٢) ابن أبى أصيبعة[١] ، الجزء الثالث ، ص ١٣٥ .

(٤٣) ابن أبى أصيبعة[١] ، الجزء الثالث ، الباب ١٤ .

(٤٤) ابن أبى أصيبعة[١] ، الجزء الثالث ، ص ١٨٧ .

(٤٥) إبراهيم بن محمد بن أيدم العلائى المشهور بابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، طبعة المطبعة الأميريه ، القاهرة ، الجزء الرابع ، ص ٩٩ .

(٤٦) تقى الدين المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، الجزء الثانى ، ص ٤٠٦ .

(٤٧) صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ، لشهاب الدين أبو العباس القلقشندى ، طبع دار الكتب المصرية ، الجزء الثالث ، ص ٣٣٧ .

(٤٨) سعاد ماهر : القاهرة القديمة ، ١٩٦٢ ، المكتبة الثقافية .

(٤٩) على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية . انظر أيضا :

Ahmed Issa, Histoire des Bimaristans à l'époque Islamique. Cong. Int. Med. Trop. & Hyg , le Caire, 1920, I, pp. 81 — 209.

(50) Clerget, M., 1934, Schindler, le Caire.

(٥١) صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ، الوافى بالوفيات، ص ٢٠ .

(52) Hirschberg, J., 1905, Die arabischen Lehrbûcher der Augenheilkunde, Abhandl. d. preuss. Akad. 92.,

(53) Brockelmann, C., Gesch. d. arab. Lit., Weimar, 1898—1902, I, 493.

(54) Ebenefis philosophi ac medici expositio super quintum canonem Avicennae ab Andrea Alpago Bellunensi ex arabico in latinum versa. Venetiae, 1547.

(٥٥) جورج سارتون ، الشرق الأوسط فى مؤلفات الأمريكيين ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٠ ، ص ٤٩ .

(56) Binet, L., En Marge des Congrès, Paris, Vigot frères, 1939, p. 73.

(57) Binet, L., Harpin, A., 1948, Bull Acad. Nat. de Méd., tome 132, No. 31 & 32, p. 542.

(58) Binet, L., Harpin, A., 1955, Bull. Acad. de Méd., tome 137, p. 698.

(59) Wiet, G., Extr. du Jour. Asiatique, 1956, p. 95.

(60) Harvey, W., Exercitatio anatomica de motu cordis et sanguinis in animalibus, 1628.

انظر بول غليونجي — حركة القلب والدم فى الحيوان لوليم هارفى ، تراث الإنسانية ، المجلد الثالث ، رقم ٥ ، ص ٣٤٨ .

(61) Walton, W., 1664, Reflections on Ancient and Modern Learning, J. Leake, London.

(62) O'Malley, C. D., Michael Servetus, A translation of his non-theological writings, Philadelphia, American Philosophical Society, 1953.

(63) Pagel, W., and Rattansi, P., 1964, Medical History, VIII, p. 78.

(64) Temkin, O., 1940, Bull. Hist. Med., 8, 731.

(65) Bariéty, M., Coury, C., 1963, Histoire de la médecine, Fayard, Paris.

(66) Zuniga Cisneros, M., 1960, Historia de la Medicina Edime, Caracas.

(67) Major, R. H., A History of Medicine, C. C. Thomas, Springfield, Ill., 1954, pp. 410 & 489–494.

(68) Huard, P., 1959, Rev. d'Hist. des Sciences, t. XII, No. 1, p. 72.

(٦٩) شرح موجز القانون لجمال الدين الأقسرائى ، طبع مطبعة نامى، لاكنو ، ١٣٢٦ هـ .

(٧٠) ألبير زكى اسكندر ، كتاب المرشد أو الفصول لأبى بكر محمد ابن زكريا الرازى ، تليه دراسة تحليلية لطب الرازى للأستاذ الدكتور محمد كامل حسين ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد ٧ ، الجزء الأول ، مايو سنة ١٩٦١ .

(٧١) ابن خلكان . وفيات الأعيان ، الجزء الثانى ، ص ٧٨ .

(72) Poème de la Medecine, Texte Arabe, etc . . . . éd. Jahier, H., Noureddine, A., Ed. Les Belles Lettres, Paris, 1956.

محتويات الكتاب

صفحة

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقي "الفجالة"

أعلام العرب

الكتاب القادم

السيد أحمد البدوي

شيخ وطريقة

بقلم

الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

الناشر : مكتبة مصر بالفجالة

الثمن : ١٠ قروش

دار مصر للطباعة